الأحلام .. مفتاح الشخصية

تأليف

عبد المنعم الزيادي

تقديم وتحرير

جلال محفوظ

الكتاب: الأحلام .. مفتاح الشخصية

الكاتب: عبد المنعم الزيادي

تقديم وتحرير: جلال محفوظ

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الزيادي، عبد المنعم

الأحلام .. مفتاح الشخصية / عبد المنعم الزيادي، تقديم وتحرير: جلال محفوظ

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

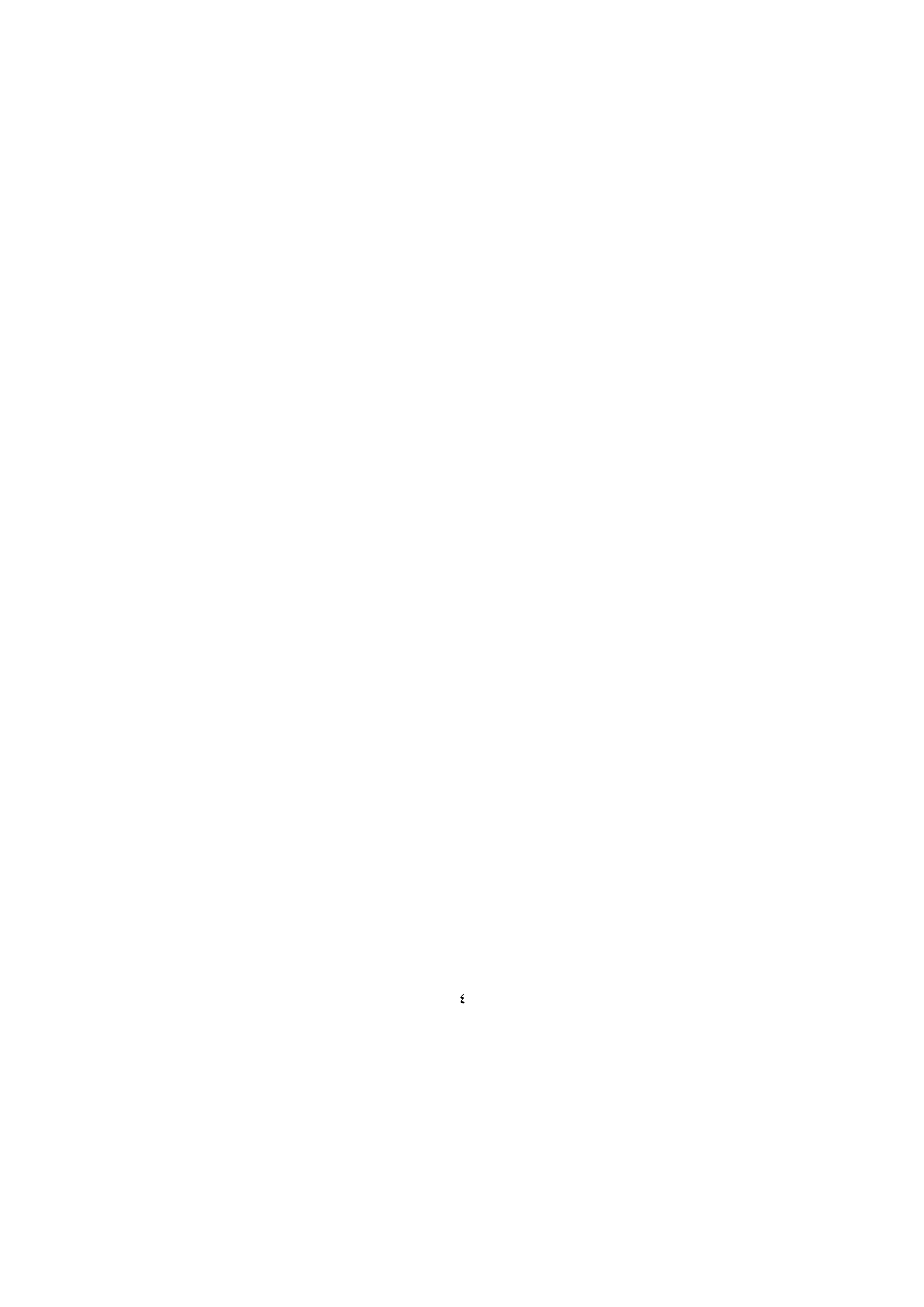
١٠١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٠٥١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٦٢١ / ٢٠٢٠

الأحلام .. مفتاح الشخصية





تقديم

الحلم نشاط إنساني معتاد، يمارسه البشر كلما ناموا، ورغم إنه نشاط معتاد إلا أنه نشاط محير، يعتبر لغزا يسعى الأنسان لتأويله ولفهم آلياته، وقد يتعامل مع أحلامه باعتبارها رسائل من العالم الخارجي يراها النائم فتكون بالنسبة له أشبه بإنذارات، أو تنبؤات بأحداث مستقبلية، لكن مع تطور علم النفس اختلف الأمر، فقد اهتم الأطباء والعلماء النفسيين بالأحلام وسعوا إلى فهم "ميكانيزمات" الحلم، فتعددت النظريات وتكاملت وأثبتت أن الحلم أكثر ارتباطًا بالواقع مما نظن وليس عالما فانتازيا أو خياليا مفرطا.

وقد تبدو الأحلام غريبة وبدون معنى، وهذا يعود بحسب الدراسات إلى تأثير كيمياء الدماغ في رؤية الأفكار التي تراودنا خلال النوم. والمعروف بحسب المعطيات المتاحة أن الأفكار التي تتكثف بعد الاستغراق في النوم تتركز على مشاكل الحياة اليومية، الأمر الذي يساعد على إيجاد حلول لها والدلائل على ذلك كثيرة.

فعندما ننام لا ننقطع عن التفكير بعكس ما كان يُعتقد سابقًا، فالإنسان، كما تؤكد الدراسات، يستمر خلال النوم في حالة من الوعي

الفكري الناشط، وهذا يعني أنه لا ينقطع عن التفكير بما يعترضه يوميًا من مشاكل حياتيه، آملاً بالوصول إلى حلول ترضي طموحاته. لكن الفرق أن دماغه في أثناء النوم لا يتعامل مع أفكاره بطريقة عادية، بل يتفاعل معها بيوكيميائيًا ليظهرها بشكل صور أو أفلام مرئية تحمل أكثر من معنى، وهذا يعيدنا إلى السؤال الآتي: هل إن الأفكار المصورة التي تنشط في الحلم تحمل أجوبة عن أسئلة تساورنا خلال اليقظة؟

وقد أشارت دراسة حديثه أجرتها مؤخرا مجلة العلوم الأميركية، إلى تفاعل الدماغ مع المشاكل اليومية في أثناء النوم، و ذكّرت المجلة أن البروفسور الأميركي شارلز شيلدر كان قد تنبه إلى هذه الظاهرة منذ أكثر من قرن. فقد أجري خلال عام ١٨٩٢ دراسة على مجموعة من الطلاب في الجامعات الأميركية، طلب منهم خلالها الاجتهاد في حل مشكلاتهم عبر الأحلام. وتجاوب الطلاب مع الأستاذ ، فمنهم من وجد حلاً لبعض المسائل الرياضية الصعبة، ومنهم من تمكن من ترجمة بعض النصوص. أما الإنجاز الأهم في هذا المجال فحدث في عام ١٩٧٢، عندما وضع أحد العلماء طلابه الجامعيين أمام معضلات يصعب حلها، وطلب إليهم معالجتها في أحلامهم. وكما فعل أسلافهم، خاضوا التجربة بنجاح، وتمكنوا من حل مشكلاتهم عبر الأحلام.

***

وقد ثبت أيضا أن للأحلام فوائدها في تجاوز مشاعر القلق والخوف وهذا يحدث عندما يرى النائم نفسه في أجواء هادئة ومريحة، أو حتى عندما يتفاعل دماغه مع الأحلام المزعجة "الكوابيس". فالكوابيس الواضحة المعالم تدربه على أخذ الحيطة والحذر وتعلّمه الابتعاد عن أماكن الخطر بأشكال مختلفة، وعلى الرغم من أن الدراسات لم تتوصل حتى الآن إلى تكوين مفهوم واضح عن هذا النوع من الأحلام، أو إلى معرفة الظروف التي تخلقها، يمكن القول أنه إذا ما تعلمنا كيف نستفيد منها عن طريق تذكّر تفاصيلها وتفهّم مضمونها، نتمكن من تكوين رؤية أوسع عن طبيعة الوعي، ويسهل علينا حل مشاكلنا بسرعة تفوق التصور.

ومن المعروف أن هناك ثلاثة مناطق رئيسية فى الدماغ يتم تنشيطها عند الحلم: الأجزاء التى تتعلق برواية القصص، وتلبية الاحتياجات، وتخفيف التوتر النفسى، ويكون الدماغ نشطاً بشكل لا يصدق فى هذه الحالة. ويذهب كذلك إلى أن الحلم ليس شيئًا مزعجًا خرافياً.. إنها عملية إنسانية أساسية للتخلص من كل التجارب المجهدة والمرهقة التى واجهناها فى حياة اليقظة.. وطريقة لدمج تجاربنا السابقة مع ما نطمح إليه فى المستقبل.

ولا يوجد رأي علمي واحد حول الوظيفة البيولوجية للحلم،

لكن الأبحاث الحديثة تشير إلى أن الحلم وظيفته الأساسية الحفاظ على النوم، فعندما نحلم نقوم بمعالجة وتحويل المنبهات والأشياء التى قد توقظنا ، وقد توصلت إحدى الدراسات النفسية الحديثة أن الكوابيس يمكن أن تكون مرتبطة بأمراض القلب، حيث إن عدم انتظام ضربات القلب يزيد من خطر الكوابيس بشكل أكبر، وذلك لأن أمراض القلب يمكن أن تقلل من كمية الأكسجين التى تصل إلى الدماغ، والتى يمكن أن تؤدى إلى كابوس.

كما أن الكوابيس والأحلام يمكن أن تشير إلى مشكلات صحية خطيرة قد لا نشعر بها. والأحلام هى الطريقة التى يدمج بها الدماغ الذكريات ويحل المشاكل ويتعامل مع العواطف، وبهذه الطريقة تعد الأحلام ضرورية لصحتنا العاطفية، وكذلك الأحلام لها وظيفة فيزيائية مهمة وضرورية للمساعدة فى ذاكرتنا والصحة العقلية والنفسية، لذا فإن الأحلام يمكن أن تشير أيضًا إلى مشكلات صحية أخرى، فقد تشير الكوابيس المتكررة إلى مشكلة صحية مزمنة وهى "توقف التنفس أثناء النوم"، حيث ثبت أن بعض المرضى الذين لديهم أحلام مرعبة بالغرق أو الاختناق يتم إغلاق مجرى الهواء الخاص بهم، لذا إذا كنت تعانى من الكوابيس المتكررة فكر فى هذه الأسباب الصحية التى يمكن أن تعانى منها. قد تكون

اضطرابات المزاج مثل القلق والاكتئاب سببًا فى زيادة معدل الحلم كل ليلة، بحيث تحلم ما بين أربعة إلى ستة أحلام فى الليلة الواحدة، حيث يمكن أن تتسبب هذه الاضطرابات فى الاستيقاظ بشكل متكرر أثناء النوم، والأسباب الأخرى للأحلام المتكررة يمكن أن تشمل الشعور بالبرودة أثناء الليل، أو الألم المزمن أو كأثر جانبى من التوقف عن تناول مضادات الاكتئاب، حتى اضطراب الهرمونات يمكن أن يكون لها تأثير على عدد الأحلام.

كذلك أثبتت الدراسات أن إصابة الشخص بعدوى بكتيرية قد يعزز من حدوث كوابيس غريبة خلال نومه العميق، كما يمكن للكحول وشرب الخمر أيضاً أن يجعلك تحلم أحلاماً غريبة لا يمكن نسيانها، وذلك لأن آثار الكحول تتلاشى فى الصباح، ما يؤثر على المواد الكيميائية فى الدماغ ويثير أحلامًا غريبة وأحيانًا مخيفة. كذلك فالأدوية المضادة للاكتئاب مثل الكحول يمكن أن تؤدى إلى أحلام غريبة، حيث أثبت أنها تزيد من فاعلية حركة العين السريعة فى الأشخاص الذين يأخذونها، ويؤدى إلى المزيد من الكوابيس كأثر جانبى.

قد تكون الأحلام التى توقظك مبكراً علامة تحذير للاضطراب المزاجى مثل القلق أو الاكتئاب، حيث لاحظ الأطباء أن الأشخاص

الذين يعانون من الاكتئاب أو القلق يدخلون مرحلة حركة العين السريعة فى وقت مبكر خلال الليل، لذا تكون أحلامهم فى وقت مبكر من الليل ويستيقظون مبكراً.

كذلك فإن حلمك بأن شخصاً أو حيوانا يهاجمك يشير لاضطراب عصبى مثل: الزهايمر أو باركنسون، وعلى المستوى النفسى يمكن لأحلام التعرض للهجوم أن تشير أيضًا إلى الشعور بفقد السيطرة على بعض جوانب حياتنا. حتى إذا كنت تشعر بأنك فى كامل سيطرتك على حياتك، فربما لا يزال لديك حلم بأن أحداً يهاجمك، لأن فى أعماقك، يمكن أن تخوض حربًا للسيطرة، وتخشى ما سيحدث إذا فقدت السيطرة.والهجوم فى الأحلام لا يكون عادة بسبب الرغبة فى إيذاء أنفسنا أو الآخرين، بل يمكن أن يكون حول صراعنا الداخلى الذى لا نستطيع حله، فى حين أن هذه الأحلام غير سارة، قد تساعدك على حل هذه المخاوف التى قد تشعر بها.

***

ولا تشير كل الأحلام السيئة إلى وجود مشكلة فى صحتك، حيث إن هناك بعض المحفزات التى قد تحفز نوعا معينا من الحلم،

حيث يمكن أن تؤثر الروائح والأصوات وحتى ما تشاهده على التلفاز قبل الذهاب إلى الفراش على أحلامك، لذلك فإن مشاهدة فيلم مرعب قبل النوم قد يؤدى إلى سيناريو مماثل فى أحلامك، حتى الفيتامينات يمكن أن تؤثر على أحلامنا، فعلى سبيل المثال فيتامين **B6** هو العامل المشترك الذى يستخدمه جسمنا لتحويل بعض الأحماض الأمينية التى نأكلها إلى الناقلات العصبية التى تؤثر على أحلامنا.

وقد انتبه الباحثون العرب لأهمية موضوع الأحلام فألفوا فيه كتبا مهمة، منها الكتاب الرائد "الأحلام: مفتاح الشخصية" وقد لمس فيه مؤلفه نقطة مهمة قلما إلتفت إليها كتاب، وهي العلاقة بين الحلم وتكوين الشخصية للحالم، فالأحلام نوع من النشاط العقلي، وأن كان يقع في خلال النوم. كما أن الأحلام تنبع من داخل النفس، وعلى هذا فهي تريد أن تحدثنا بشيء مما يجري داخل أنفسنا، أو هي تروي لنا قصة، وتقول لنا ما تريد قوله برموز غريبة هي الأصل في هذا الغموض الذي أحاط بالأحلام على مر العصور، فهي إذن جزء من شخصيتنا، فمتى فهمنا ماذا تريد أن تقول لنا، وسعنا أن نقف على حقيقة أفكارنا ورغباتنا ومشكلاتنا، خصوصاً الدفينة منها التي تعرضت لعوامل الكبت، ومن ثم كانت الأحلام المفتاح المؤدي إلى

مغاليق الشخصية، وكان تفسير الأحلام أو تحليلها عاملاً شديد الأهمية يعتمد عليه المحللون النفسيون في فهم مكنونات نفوس المرضى والتوصل إلى أصل مشكلاتهم وأزماتهم.

هذا ما آمن به المؤلف وحاول أن يثبته في كتابه، الذي بدأ باستعراض نظريات الأحلام قبل فرويد وبعده فعرض تباعاً نظريات ريفرز، وشتيكل وكارل يونج. وتذهب النظريات إلى أن وظيفة الأحلام هي حل المشكلات التي نعجز عن حلها في أثناء اليقظة، وتعرض المؤلف إلى شرح "الكابوس" كنتيجة للإخفاق في حل العقدة أثناء الحلم وبذلك تظهر الانفعالات عنيفة حادة.

كما توقفت هذه النظريات عند صلة الحلم بحياة اليقظة، وتبين أنه مستقي من هذه الحياة، وأن عناصره هي تلك التي لم يعد لحالة اليقظة سيطرة عليها، وأن كثيراً من العناصر والذكريات التي تظهر في الحلم ترجع إلى عهد الطفولة، وأن الحلم بأكمله يؤدي للشخص وظيفة نفسية هامة.

كذلك خصص فصلا لدراسة مختلف العمليات التي تتدخل في بناء الحلم، وأهمها التكثيف أو التركيز، كأن يرى الحالم مجموعة من الأشخاص في شخص واحد، والإحلال أي أن شيئاً

يحل محل شيء آخر، وعملية إعطاء الرموز، فرؤية شيء في الحلم يعتبر رمزاً لشيء آخر لا يسمح الرقيب برؤيته كما هو بدون تعديل، فلكل حلم أكثر من معنى، وأن لكل رمز عدة مدلولات، وقد أورد خمسة أنواع من الرموز وكلها ترمز إلى المرض النفسي، وذكر أمثلة لرموز معينة ترتبط بأمراض نفسية معينة، وهكذا أوضح لنا هذا الفصل أن الأحلام مرآة تفكير الشخص فهي تفصح بجلاء عن مشكلاته.

أما مؤلف الكتاب فهو الأستاذ عبد المنعم الزيادي، بدأ حياته صحفيا بدار الهلال في أربعينيات القرن العشرين، واهتم بشكل خاص بالدراسات النفسية، وكان من رواد الكتابة والترجمة في مجال "علم النفس الشخصي" أو "علم النفس الإيجابي" ، وهو جانب تطبيقي في علم النفس يستهدف تطوير الشخصية والارتقاء بها وصولا إلى تحقيق الأهداف المرجوة، وبالتالي النجاح والسعادة. وأسس من أجل ذلك سلسلة كتب راجت خلال عقدي الخمسينات والستينات من القرن العشرين أسماها "طريقك إلى السعادة"، وكتابه "الأحلام: مفتاح الشخصية" أصدره ضمن هذه السلسلة، كما أصدر مجلة تبنت نفس الهدف وهي مجلة "حياتك" التي ظل يصدرها ويرأس تحريرها طوال ربع قرن من ١٩٤٧ وحتى ١٩٧٢، وقد توفي

الزيادي في "سنة ١٩٩٢"، وكان قد ناهز السبعين من العمر ، وكان يومها في رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث وافته المنية هناك.

جلال محفوظ

مقدمة المؤلف

هل تساءلت يوماً: "ماذا تعني الأحلام التي تتراءى في المنام، مضحكة تارة، مبكية أخرى، غامضة طوراً، واضحة آخر؟" هل تساءلت: "ما مصدرها؟ وما مغزاها؟ وماذا تريد أن تقول لي؟" .. لقد أحاطت بالأحلام على مر العصور شأنها شأن كل شيء غامض، الخرافات، والأوهام، وكثر مستغلوها من المشعوذين، والدجالين الذين رأوا في غموضها منفذاً ينفذون به إلى عقول السذج والبسطاء...على أن غموض الأحلام ما لبث أن كشفه علماء النفس الذين جعلوا النشاط الإنساني موضع بحثهم ودراستهم، والأحلام ضرب من النشاط العقلي ولاشك، وأن كان يقع في خلال النوم. وطبيعي أنه لا يمكن للأحلام إلا أن تنبع من الداخل، أي من داخل النفس، وعلى هذا فلاشك أنها تريد أن تحدثنا بشيء مما يجري داخل أنفسنا، أو هي تروي لنا قصة، وما ترويه لنا شيء ولا ريب يهمنا أو يشغلنا، وهي تقول لنا ما تريد قوله برموز غريبة هي الأصل في هذا الغموض الذي أحاط بالأحلام على مر العصور! ولما كانت الأحلام تنبع من داخل نفوسنا، وتحاول أن تعبر لنا عما يشغلنا، فهي إذن جزء من شخصيتنا، فمتى فهمنا ماذا تريد أن تقول

لنا، وسعنا أن نقف على حقيقة أفكارنا ورغباتنا ومشكلاتنا، خصوصاً الدفينة منها التي تعرضت لعوامل الكبت، ومن ثم كانت الأحلام المفتاح المؤدي إلى مغاليق الشخصية، وكان تفسير الأحلام أو تحليلها عاملاً شديد الأهمية يعتمد عليه المحللون النفسيون في فهم مكنونات نفوس المرضى والتوصل إلى أصل مشكلاتهم وأزماتهم. وليس هذا كتاباً شاملاً في الأحلام ومدلولاتها، وإنما الغرض منه هو تعريف القارئ بالأحلام في رأي علماء النفس الذين أولوا الأحلام جانباً كبيراً من اهتمامهم ودراستهم، ونحن نسوق في هذا الكتاب نظرياتهم سوقاً موضوعياً مجرداً، فهذا الكتاب –كما أسلفنا– للتعريف لا للمناقشة. على أنني واثق أن القارئ سيلمس في آراء علماء النفس التي نسوقها هنا مبادئ وأسساً عامة، وسيرى أن الاختلاف لم يكن على الجوهر، وإنما على التفاصيل، وأن الآراء إنما في الواقع تكمل نفص بعضها البعض. ونرجو أن يكون هذا الكتاب الموجز عن الأحلام حافزاً لمن يشاء إلماماً أوسع بالطبيعة البشرية على متابعة القراءة في هذا الموضوع، والتوسع فيها.

عبد المنعم الزيادي

الفصل الأول

الأحلام قبل فرويد

حين استقل علم النفس عن الفلسفة، وأصبح علماً يتتبع مناهج البحث العلمية، ويستهدف دراسة النشاط الإنساني في كافة صوره ومظاهره، كان طبيعياً أن يتجه نظره إلى الأحلام محاولاً إجلاء خوافيها وغوامضها.

وقد كان فرويد أول عالم نفسي قدم للأحلام تعليلاً علمياً قائماً على نظريته العامة في التحليل النفسي، ولكنه في هذا الموضع استعان بما سبقه من اجتهاد العلماء الذين اتجهوا بأذهانهم إلى هذا المظهر من مظاهر الحياة النفسية للمرء.

وقبل فرويد، كان الموضوع الذي يشغل الأذهان فيما يتصل بالأحلام، هو صلة الحلم باليقظة، وقد حاول بعض السابقون لفرويد أن يوجدوا الرابطة بين الحلم واليقظة، وحاول آخرون أن يثبتوا عدم الصلة بينهما، ولكن هؤلاء وأولئك على السواء، أجمعوا تقريباً على أن مادة الحلم مستقاة من حياة اليقظة، والقليل منهم من شذ عن هذا الإجماع ورأى أن مادة الحلم تستقي من دنيا غامضة لا ندري عنها شيئاً، ومهما

يكن من أمر، فإن "مادة الحلم" أو عناصره هي التي نالت فيما قبل فرويد، حظاً من البحث والدراسة أوفر مما نال "شكل" الحلم الظاهري، أو أسبابه وبواعثه. ومن العلماء الذين رأوا أن الحلم يأتي بالعناصر التي لم يعد لحالة اليقظة سيطرة عليها، وأن الذكريات المطوية التي يظهرها الحلم ترجع أحياناً إلى عهد الطفولة، وهي نظرية قريبة من نظرية فرويد، نذكر العلماء موري ودليوف، وهارفي دي سانت دنيس ومايرز.

ويذكر موري أنه رأى في أحد أحلامه شخصاً قال له أن اسمه "س" وأنه كان حارس الجسر في قريته، وقد أيد خادم كبير السن، صحة وجود حارس بهذا الاسم عندما كان موري طفلاً! وهو يذكر هذا المثل للتدليل على أن الأحلام تعبر عن الذكريات السحيقة المطوية التي لم يعد لحالة اليقظة سيطرة عليها. أما عن بواعث الحلم وأسبابه فقد خرج العلماء الذين سبقوا فرويد ببعض قواعد عامة عنها، لعل أهمها أثر المؤثرات الخارجية في شكل الحلم، ومن ذلك ما رواه "موري" أيضاً من أن جيرانه كانوا يستعملون مقصاً له صوت رنان وهو نائم، فحلم أنه يسمع أجراساً.

ولعل هذه الحقيقة هي التي حدت بفرويد إلى أن يركز اهتمامه في مسألة استبدال بواعث بأخرى في الحلم، وخرج من ذلك بنظريته في الإحلال والإبدال.

ومن المسائل التي لفتت أنظار العلماء قبل فرويد، وترتبت على علاقة المؤثرات الخارجية بشكل الحلم، الثغرة التي لمسها العلماء بين الإحساس الذي يسيطر على الحلم، والصورة التي تتراءى فيه، فالإحساس ظاهرة نفسية لها وجود مادي، أما الصورة التي تتراءى فليس لها وجود مادي فكيف تدفع صورة لا وجود لها إلى إحساس مادي؟ أما فرويد فلم يفرق بين الصورة والإحساس، بل قرر أن الحلم "حقيقة" نفسية، وأنه لا يمكن تفسيره على أساس الإحساس وحده، بل لابد من التوغل إلى أعماق النفس، أي أن الحلم بمعنى آخر يؤدي وظيفة نفسية.

ولعل ريبو وهو من الذين سبقوا فرويد، رأى أكثر من غيره أن الأحلام في جملتها تجمعها وحدة الغرض العاطفي الذي يسيطر على كل حلم تقريباً، غير أنه لم يستطع العثور على الوسائل التي تمكنه من البحث عن أسس الحلم وبواعثه.

ومن النقطة التي انتهى عندها ريبو، بدأ فرويد إذ استطاع بطريقة تداعي الخواطر أن يجعل من وجهة نظر ريبو قاعدة عامة، وأن يظهر بوضوح الوحدة العاطفة التي تسود الحلم، والتي لا يستطاع الطشف عنها إلا باستخدام طريقة تداعي الخواطر التي تظهر معنى الحلم وهدفه.

ويمكن القول أنه سبقت فرويد في تحليل الأحلام ثلاثة مدارس، الأولى: تقول بوجود النشاط النفسي لحالة اليقظة في الأحلام، ومن أقطاب هذه المدرسة ولبوف.

والثانية: تذهب إلى أن الأحلام تظهر ما تتضمنه حالة اليقظة "الجزئية" أثناء النوم، أي أن الأحلام بمعنى آخر مصفة للخواطر، ومنق للعناصر الفكرية مما يشوبها، ومن القائلين بهذه النظرية "روبرت" و"دلجا" فقد لاحظ روبرت أننا نحلم بالأشياء التافهة التي تقع في يومنا، وقلما نحلم بالأحداث الجسام، وخرج من هذا بأن الحلم وسيلة لتقليم الأفكار ذات الأهمية الثانوية، ولاحظ "دلجا" الملاحظة نفسها بل خرج بنتائج لعلها مهدت الطريق لنظرية فرويد في الكبت.

والثالثة: تذهب إلى أن ثمة نشاطاً يغزو العقل خلال الحلم، وأن هذا النشاط لا يوجد في حياة اليقظة إلا نادراً، وكان أول من اتجه إلى هذا الرأي شرنر، إذ قال: "أنه ولو أن الذكاء تغطية غشاوة خلال الحلم، إلا أن قوة الخيال تكون غاية في الشدة، بل أن قوته لتفوق كل ما يبدو في الحلم من رموز، والحافز القوي هو الذي يخفي مادة الحلم، ولكنه بدلاص من أ يبديها واضحة جلية، يعهد بها إلى الخيال ليترجمها إلى لغة الرموز، فالشوارع الطويلة الضيقة

مثلاً، قد يكون الحافز على رسمها اضطراب الأمعاء، والأمكنة المظلمة التي توحي بالضيق علامة على ضيق التنفس، وهكذا". ولاشك أن فرويد قد تأثر بوجهة نظر شرنر إلى حد بعيد في شرحه للرموز التي تتراءى في الحلم، كما تأثر بما قالت به النظريتان السابقتان. ولكن الذي كان لفرويد فضل السبق فيه هو العلاقة بين المرض النفسي والأحلام، أو الأحلام باعتبارها مفتاحاً لرغبات الشخصية المكبوتة.

ولاشك أن نظرية فرويد في الأحلام كانت أوفى وأكمل نظرية في هذا الموضوع، وكما تعرضت نظريته العامة في التحليل النفسي للانتقاد، كذلك تعرضت لمثلها نظريته في الأحلام، على أن كل ما وجه من نقد واعتراض لا يهدم وإنما يضيف تعديلاً، أو يجلي غموض نقطة أو يوجه الذهن إلى اعتبار آخر، لذلك آثرنا في هذا الكتاب، أن نشفع نظرية فرويد في الأحلام، ببعض وجهات نظر من تلاه من العلماء، ففي ذلك إحاطة أشمل وفهم أوسع للأحلام باعتبارها مفتاحاً مهماً من مفاتيح فهم الشخصية، وخاصة ما استتر من رغباتها ونزعاتها.

الفصل الثاني
الأحلام إشباع رغبة

يركز فرويد نظريته في تحليل الأحلام في هذه العبارة: "الأحلام ظاهرة نفسية"، وهو لا يعتمد في تفسير الحلم على الاحساسات أو الحوافز الحسية التي سجلها المرء خلال الحلم، ولا يعتمد أيضاً على المؤثرات المادية التي عساها أن تؤثر في حواس النائم، وإنما هو يتجه وجهة أخرى، عبر عنها بقوله: "علينا أن نبحث عن نشاط نفسي أصيل لا يمكن إرجاعه إلى مجرد التسجيل السلبي الذي تقوم به الحواس والذاكرة، وأن نعثر على هذا النشاط، وهو يؤدي عمله في الحلم، وألا يغيب عن بالنا أن للحلم معنى". وواضح أن النشاط النفسي الأصيل الذي لا يمكن إرجاعه إلى الحواس أو الذاكرة، لابد أن يكون على درجة كبيرة من النظام والترتيب، أو بعبارة أخرى لابد أن يتضمن مغزى، وهذه هي أولى خطوات فرويد نحو تفسير الحلم. فكيف يمكن أن نكشف عن مغزى الحلم؟

أنك حين تسأل الحالم عن مغزى حلمه، فهو في الغالب لا

يرى له مغزى، ولا يدري كيف حلم به. ولكن علم النفس الحديث يسلم بأن النفس لا تعني بحكم الضرورة الوعي أو الشعور، وأن ما نعرفه عن أنفسنا أن هو إلا جزء يسير منها.

ويستعين فرويد بتجارب التنويم المغناطيسي على شرح هذه الحقيقة فيقول: "إن الشخص الذي قام تواً من نوم مغناطيسي لا يذكر ما حدث له خلال نومه، فإذا ألح عليه المنوم في أن يذكر، تذكر كل ما حدث له أثناء نومه تقريباً، وإذن فهناك معرفة كامنة فيه، وهناك "رأس مال" نفسي لم يكن يعرف أنه يملكه"، على أن الموازنة بين النوم المغناطيسي والحلم تعد قياساً مع الفارق، إذ ما يجري خلال النوم المغناطيسي يجري في حالة قريبة من الوعي؛ لأن الشخص المنوم يعرف ما يحدث في لحظة تنويمه، ولو أن هذه المعرفة قد تختفي فيما بعد وتصبح كامنة، ولكنها معرفة يمكن أن تستعاد، أما في الحلم فالحالة مختلفة تماماً، فالعمليات النفسية التي تسبب الحلم ليست واعية على الإطلاق، والحلم لا يبدي منها إلا نتائجها فقط.

وقد قلنا أن الحالم لا يدري من العمليات النفسية التي تسبب الحلم إلا نتائجها، ألا يحتمل إذن، وفقاً لنظرية السببية أن تكون النتائج هي نفسها الأسباب، تماماً كما أن الدخان علامة على شبوب

النار ونتيجة لها أيضاً؟ أما يحتمل إذن أن تكون العمليات النفسية اللاشعورية هي سبب الحلم، وهي نتيجته؟ أن التناسق والارتباط بين السبب والنتيجة لابد منه لكي ينتهي العقل إلى التصديق والاقتناع، وفرويد لم يكن فيلسوفاً، ونادراً ما كان يلجأ إلى الاستنتاج والاستنباط، وإنما هو يشرح الحاضر مستعيناً بالماضي، ويفسر الواقع باستثارة المطوي من الذكريات، فالتحليل النفسي يقوم على الجبرية الظاهرة وليس على النسبية المنطقية.

إذن فالحلم لابد أن يكون مرتبطاً بالمخزونات المشوشة غير المرتبة التي خلفها التاريخ النفسي للشخص، وقد خزنت بطريقة تخالف الطريقة التي كان يجب أن تخزن بها، وهي لذلك تظهر العلاقة السببية بينها وبين عمليات عقلية سابقة، ولكن، كيف تتوصل إلى المعنى الخفي للحلم؟

السبيل الأمثل لذلك هو تداعي الخواطر، فهذه هي الوسيلة التي توصلنا إلى معرفة شيء نعيه بشيء آخر لا نعيه، دون أن يكون لذلك سبب ظاهر في الوعي على وجه التحديد، وإنما يكمن السبب في العملية النفسية الآلية التي بوساطتها ينادي خاطر خاطراص آخر دون تدخل واع منا، ولا تستلزم منا هذه الوسيلة سوى أن تتخذ موقفاً سلبياً وندع الخواطر يدعو بعضها بعضاً.

فإذا أردنا أن نفسر حلماً ما، فما علينا إلا أن نطلب إلى الحالم أن ينتقل إلى حالة تقرب من حالة الحلم، وأن يتخلى عن كل محاولة إرادية لضبط أقواله، وأن يتخذ موقف المتفرج الذي يحكي ما يرى أو ما ينعكس على صفحة ذهنه، وبذلك يمكن أن نعطيه تفسيراً لكل صورة من صور حلمه، وسوف يجد الحالم أن الخواطر التي تدور بذهنه ذات مغزى، وأن لها أصلاً ثابتاً في نفسه، وأن كل ما يراه من صور، أو يجول في خاطره من أفكار يفضي إلى معنى الحلم.

حلمت سيدة ذات مساء أنها ذبحت كلباً أبيض، وجعلت تسأل نفسها عن معنى هذا الحلم الذي لم يكن له في اعتقادها أدنى صلة بحياتها اليومية، ولما أعيتها الحيلة، ذهبت إلى المحلل النفسي، وحين بدأت تسرد خواطرها المتداعية، قالت أنها تهوى الطهو، وأنها كثيراً ما تذبح الدجاج والحمام ولكنها تمقت عملية الذبح وتفعلها بأسرع ما يمكن، وهنا لاحظت السيدة أنها ذبحت الكلب في الحلم بنفس الطريقة التي اعتادتها في ذبح الطيور. ثم انتقلت الخواطر والأفكار إلى فكرة "الجزاء والعقاب" والطريقة التي ينفذ بها الشنق، والمشاعر التي تجول في نفس المحكوم عليه بالإعدام، وقد أضاء هذا القول السبيل أمام المحلل، فسألها هل تحمل حقداً أو كراهية لشخص ما؟ فأجابت بأنها تحقد على زوجة

أخيها، وأنها تشاجرت معها عقب مشادة حامية بينهما انتهت بأن قالت لها "أخرجي، فإني لا أريد كلباً عقوراً في بيتي"، وسألها المحلل أن تصف هذه السيدة فقالت أنها قصيرة القامة ذات بشرة بيضاء باهتة، أي في لون الكلب الذي رأته في الحلمً وهكذا وضح للسيدة معنى الحلم.

مضمون الحلم

ويرى فرويد أن للحلم مضمونين: مضموناً ظاهراً مضموناً كامناً أو خفياً أما الأول، فهو الحلم كما يبدو بحالته غير المفهومة. أما الثاني فهو "المعنى" الذي أسلفنا شرحه فالمضمون الظاهر في حالة الحلم الذي حلمته السيدة هو مشهد ذبح الكلب الأبيض، أما المضمون الكامن فهو الإحساس بالكراهية والرغبة في الانتقام من زوجة الأخ.

ويقول فرويد إن أفكار الحلم ومضمون الحلم يظهران كشكلين مختلفين لشيء واحد، فمضمون الحلم يبدو كترجمة لأفكار الحلم بأسلوب مختلف نستطيع أن نتوصل إلى حل رموزه، وقوانين تركيبه، من مطابقة الأصل بالترجمة، أما أفكار الحلم فيمكن أن نفهمها دون صعوبة في اللحظة التي تتكشف لنا فيها. ومهما يكن "الأسلوب" الذي يترجم به المضمون الظاهر للحلم عن أفكار الحلم، معقداً أو

سخيفاً، أو لا معنى له، فإن في الوسع قطعاً تحويله إلى كلمات مفهومة متى وضع بعضها بجانب بعض، وضح معنى الحلم على الفور.

والمضمون الكامن أو الباطن للحلم مقره فيما وراء الشعور، أما مجموعة العمليات التي حدت بالمضمون الكامن إلى أن يلد المضمون الظاهر فمقرها اللاشعور. ويطلق فرويد على هذه العملية – عملية ولادة الحلم– أو مضمونه الظاهر – اسم عملية البناء أو عملية الحلم، والذي ينشد أن يفسر الحلم ينبغي أن يعبر الطريق في الاتجاه المضاد، أي يتطرق من المضمون الظاهر إلى المضمون الباطن إلى اللاشعور، وهذا هو جوهر طريقة التحليل النفسي. ولعملية البناء قوانين تتم بمقتضاها، أو عمليات تجتازها قبل أن يكتمل البناء، وهي:

١– ميكانزم البناء.

٢– التكثيف.

٣– الإحلال.

٤– التجسيم.

٥- الرمز.

٦- البناء الثانوي.

وقبل أن نستطرد إلى شرح هذه العمليات، نود أن نشير إلى هدف الحلم، فقد راينا أن للحلم معنى يمكن الوصول إليه، ولكن ما هو الهدف من الحلم؟ أو الذي يريد الحلم أن يحققه للحالم؟

هدف الحلم

لقد تكشف لفرويد من تحليل عدد كبير من الأحلام أن المعنى الذي يكشف عنه التحليل يهدف إلى إشباع رغبة مكبوتة أو مكبوح. ومن حيث درجة وضوح الرغبة التي يهدف الحلم إلى تحقيقها، قسم فرويد الأحلام إلى ثلاث مراتب:

١- أحلام يسهل تفسيرها دون حاجة إلى تحليل لوضوح هدفها.

٢- أحلام لا يمكن إدراك مكنوناتها إلا بالتحليل ولكنها متصلة بعمليات يمكن للحالم التعرف عليها؛ لأن القسم الأكبر منها من عمل ما وراء الشعور.

٣- أحلام ليس من سبيل إلى الوصول إلى حل رموزها إلا بالتحليل لأن محتوياتها لاشعورية، ولأن مادتها مستمدة من صميم اللاشعور.

ومن أمثلة أحلام القسم الأول ما ساقه فرويد عن ابنته "أنا" فقد سمعها وهي طفلة في سنتها الثانية تقول وهي نائمة: "أنا فرويد .. كريز .. كريز بالكريمة .. عجة .. بابا"، وكشفت بذلك عن رغبتها في الأطعمة التي منعت عنها لاشتباه في تسمم بسيط أصابها!

ومثل آخر ساقه فرويد أيضاً عن ابن أخيه وعمره عشرون شهراً، فقد طلب إليه أن يقدم لعمه سلة من البرقوق في عيد ميلاده، ولكن الطفل كان يتهيب القيام بهذه المهمة وتمنى لو تخلص منها بطريقة ما، واستيقظ من نومه في اليوم التالي وهو يقول: "لقد أكل عمى البرقوق كله"! وهنا نرى تحقق الرغبة في حلم الطفل واضحاً، فقد حلم أنه قدم لعمه سلة البرقوق وفرغ من مهمته الثقيلة! وكثير من أحلام الكبار ينتمي إلى هذه الرغبة، ويتضح فيه تحقق الرغبة، ومنشأ هذا النوع من أحلام البالغين هو الاحتياجات الطبيعية كالطعام والشراب والرغبة الجنسية.

ومن أمثلة هذا النوع من الأحلام ما أورده الرحالة "نوردنشولد" وهو يروي قصة بحارته الذين أمضوا ذات شتاء في القطب الشمالي، قال الرحالة: "كان أحد بحارتي قد تخصص في أحلام الطعام فإذا أصبح الصباح قص علينا أنه رأى في المنام أنه يتناول عشاء فاخراً، وكان آخر –وهو مدخن– يحلم بجبال كلها من السجاير، وثالث يحلم بسفينة تمخر عباب البحر بأقصى سرعتها"، ثم أردف الرحالة:

"وللمرء أن يتصور كم كان تلهفنا على النوم؟ فالنوم وحده كان يشبع الرغبات الجامحة التي تسيطر علينا".

الحلم حارس النوم

ولم يقف فرويد عند حد أن للحلم معنى، وأن هذا المعنى يكشف عن إشباع رغبة، بل واصل بحثه حتى وصل إلى أن الأحلام رد فعل لحافز نفسي، وأن وظيفتها هي إبعاد الاهتياج والاضطراب عن النائم ليتمكن من الاستمرار في النوم.. وعلى هذا فالأحلام لا تزعج النائم كما يظن أكثر الناس، بل هي، على العكس، تحرس النوم وتبعده عن المؤثرات المزعجة.

والحلم يحرس النوم بأن يرد على الاهتياج النفسي الناشئ عن الرغبة المكبوتة، بإظهاره هذه الرغبة كما لو كانت قد تحققت.. أما أحلام الكابوس، فهي أحلام أخفقت في أداء وظيفتها – ربما لشدة الحافز المزعج – فأيقظت الحالم متأثرًا بهذا الإزعاج.

الرقيب

ومقدار نجاح الحلم أو إخفاقه في أداء وظيفته يتوقف على عمل الرقيب الذي يؤدي مهمته أثناء النوم.. وكدلالة على عمل الرقيب، يسوق فرويد هذا الحلم:

حلمت سيدة في الخمسين من عمرها – وهي أرملة ضابط توفى قبل ذلك بزمن طويل – أنها ذهبت إلى مستشفى حربي "وكان ذلك في عام ١٩١٥ إبان الحرب العالمية الأولى، وكان لها ابن في جبهة القتال" وسألت الحراس أن يدلوها على مقر الطبيب المسئول إذ أنها تريد أن تعرض "خدماتها" على المستشفى.. وفهم الحارس من نطقها لكلمة "خدمات" أنها تعني خدمات ذات صبغة جنسية، فتردد، ولكنه تركها تمر.. ودخلت غرفة فسيحة رأت فيها عددًا من الضباط حول مائدة، فاقتربت من كبير الضباط وقالت: "إن والكثيرات من فتيات فينا على استعداد لأن.. "وهنا سمعت الحالمة همهمة غير مفهومة.. وواصلت حديثها" للضباط والجنود على السواء". وخيم صمت مطبق لحظة، لف الضابط ذراعه حول خصرها وقال: "يا سيدتي العزيزة، تصوري لو أن ذلك أفضى إلى "وهنا عادت الهمهمة إلى الظهور".." فتخلصت من ذراع الضابط وراحت تفكر: "كل الرجال يشبه بعضهم بعضًا" ثم قالت: "يا إلهي. إنني امرأة مسنة، ولا يصح أن أوضع في هذا الموضع".. فقال الضابط: "إنني أفهم تمامًا"، ثم أراها درجًا يفضي إلى مكان الطبيب المسئول، وبينما هي تصعد الدرج يملؤها الإحساس بأنها تؤدي الواجب، إذ سمعت الضابط يقول: "هذا قرار خطير، فسواء كانت المرأة مسنة أو فتية فلها الشرف كله".

ونظرة شاملة على هذا الحلم تجعلنا نلمس التسلسل والترتيب في مادته، إذا استثنينا بعض المواضع الحساسة التي استبدلت بها همهمة غير مفهومة.. فهذه الهمهمة من عمل الرقيب الذي حذف ما يشين السيدة وينتقص من شرفها.. وهي أشبه ما تكون بالأماكن البيضاء التي تخرج بها الصحف أحيانًا في أوقات الحروف وقد حذف الرقيب منها بعض الأجزاء التي لا تتفق مع الصالح العام.. وأحيانًا يتكهن الصحفي بما سيحذفه الرقيب فيحاول أن يدور حول النقطة الشائكة ويخفي ما استطاع من معالمها حتى يموه على الرقيب، ويطلق فرويد لفظ "الرقيب" على مجموعة الحوافز التي تسيطر على شعور المرء وتؤدي وظيفة الكبت أو القمع فتعيدها مرة أخرى إلى مكانها في اللاشعور.. وهو يرى أن عملية الكبت تحدث بطريقة شعورية في باكورة الحياة، أي في الطفولة، ثم تصبح وظيفة لاشعورية، ويحل الكبت محل الكبح ويتجلى الرقيب من خلال النشاط الذي يدور لقمع الخواطر المتواردة، أو من قوة المقاومة التي تتولد في المرء عندما يجد أن خواطره تتوارد توارُدًا حرًا يدنيه من ذكرى مؤلمة أو منفرة.

الرقيب وتحقيق الرغبات

وقد يتساءل المرء. إذا كان الحلم تحقيق رغبة، فكيف نفسر

المشاعر المؤلمة التي نحسها أحيانًا في الأحلام؟ وفرويد يجيب عن هذا السؤال بأن تحقيق الرغبة يجب أن يكون باعثًا على السرور على شرط ألا تكون الرغبة متعارضة مع الرغبات الأخرى التي يرفضها الشعور..

فإذا فهمنا وظيفة الرقيب فهمًا صحيحًا، وجدنا أن الرغبات التي تسبب الحلم ليس من الضروري أن يرضى عنها الشعور، بل على العكس، هي في الأغلب رغبات يقاومها الشعور ويرفضها، ويأبى أن يدع لها مجالاً للظهور.. ومن ثم فهذه الرغبات المكبوتة، ولو أنها ترضي الجانب البدائي "اللاشعوري" في الإنسان فهي لا ترضي الجانب الراقي "الشعور"، ومن هنا يحدث رد الفعل الذي يرد به الرقيب على الرغبات البدائية التي تصدر عن اللاشعور، وتكون النتيجة حالة القلق التي تنتاب المرء عندما لا يكون هناك بد من ظهور هذه الرغبات، وعندئذ تعد من الأحلام التي تسعى لتحقيق الرغبة بنوع مكشوف.. فإذا حدث أن كانت الرغبة مما لا يرضى عنه الحالم، حل الشعور بالقلق أو الألم محل الرقيب، وهذه هي الأحلام التي تفلت في غفلة من الرقيب. وإذا كان الحلم الطفلي تحقيقًا مكشوفًا لرغبة واضحة "كما رأينا في حلمي الطفلين"، وإذا كان الحلم العادي المقنع تحقيقًا مغطى لرغبة مكبوتة، فإن حلم القلق هو تحقيق مكشوف لرغبة مكبوتة.

الرقيب وعقاب النفس

ودراسة شاملة لنظرية فرويد في تحقيق الرغبة تفضي بنا إلى نظريته في المرض النفسي.. كما أن فهم نظرية الرقيب توضح نظريته في عقاب الإنسان لنفسه التي تكشف عنها الأحلام المؤلمة التي يعزها فرويد إلى نوع من الماسوكية الذهنية. ذلك أن فرويد ادخل على نظريته في تحقيق الرغبة تعديلاً مؤداه أن في الكيان النفسي ميلاً إلى إعادة تمثيل الحوادث التي نشأت عنها العقدة النفسية، وهو ميل يمضي في طريقه بغض النظر عن مبدأ اللذة الذي يدفع إلى الهروب من الذكريات المؤلمة.

وقد أدخل هذا التعديل عندما لاحظ أن معظم المرضى النفسيين يحلمون مرارًا وتكرارًا بالحوادث التي أدت إلى مرضهم النفسي بأشكال مقنعة، ثم يستيقظون من نومهم وقد سيطرت عليهم المشاعر الأليمة. وتشبه هذه الآلية بتأنيب الضمير. فالمرء إذا اعتقد أنه قصر في أداء واجب ما، عاقب بنفسه على تقصيره باللوم والتأنيب اللذين يصبهما على نفسه، وكذلك الحال في المرض النفسي. فالمريض النفسي يعتقد – سواء حقًا أو وهمًا – أنه ارتكب جرمًا وينبغي أن يعاقب عليه.. وإذن فتفسير الأحلام التي يراها المرضى النفسيون عامل يساعد إلى حد كبير جدًا على فهم منشأ العقدة أو الاضطراب النفسي.

مصادر الأحلام

وإلى هذا الحد لم يعد باقيًا على فرويد إلا أن يعدد مصادر الحلم.. فقد انتهينا إلى أن الرغبات هي الدافع الحقيقي للحلم، وأن الإحساسات التي يحسها المرء خلال نومه محركة لها، وأن وقائع اليوم السابق للحلم أو الحوادث القريبة العهد قد تكوِّن بعض عناصر الحلم أو عناصره كلها، وأن المضمون الظاهر للحلم يفصح عن المضمون الكامن، وأنه بطريقة تداعي الخواطر الحرة تتوصل إلى العلاقة السببية بينهما، وأن الإحلال والتكثيف والتجسيم عمليات مهمتها تقنيع العلاقة بين المضمون الظاهر والباطن كي يتهيأ للنائم الاستمرار في النوم.. ولكن ما هي مصادر الحلم.. من أين يأتي الحلم بمادته؟.. لقد عدد فرويد أربعة مصادر للأحلام، هي:

١. واقعة حديثة العهد ذات أهمية نفسية يقدمها لنا الحلم مباشرة دون خفاء أو تقنيع.

٢. جملة وقائع حديثة العهد يجمعها الحلم في وحدة متصلة الحلقات، ويصبح التحليل ضروريًا لتفكيك هذا التجمع.

٣. واقعة أو جملة وقائع حديثة العهد يقدمها الحلم مغلفة بغلاف من الوقائع التافهة التي ليس لها أهمية تذكر، فيتعقد التحليل،

ويتعين اقتفاء أثر الحلم في الاتجاه المضاد أي في اتجاه اللاشعور. على أنه، بما أن مركبات هذه الأحلام حديثة العهد، فإن التحليل لن يكون صعبًا جدًا.

٤. واقعة نفسية مهمة قديمة العهد يقدمها الحلم مغلفة بغلاف حديث لا أهمية له. وهو النوع الغالب في أحلام المرضى النفسيين.

ونعود الآن إلى العمليات التي يتم بها بناء الحلم، وهي التي ذكرناها فيما سبق، لنتناولها بالشرح.. فمعرفة كيفية بناء الحلم تساعدنا ولا شك على معرفة كيفية تحليل الحلم، أو كما قال فرويد "عبور الطريق في الاتجاه المضاد"، من المادة الظاهرة للحلم إلى المادة المختفية في اللاشعور..

١- التكثيف:

أي ظهور المضمون الكامن بشكل مضغوط أو متكاثف في المضمون الظاهر، فالمضمون الكامن لا شك أنه أكثر تطويلاً وتفصيلاً من المضمون الظاهر.

ومن أمثلة التكثيف أن نرى في الحلم شخصًا هو في الواقع مزيج من عدة أشخاص.. فقد يتخذ ملامحه، وقسماته، وصفاته،

وميزاته من عدة أشخاص مختلفين في الحياة الواقعة، ولكنه يظهر لنا في الحلم على أنه شخص واحد.

٢- الإحلال:

أي تحويل الإحساس المتعلق بواقعة معينة إلى واقعة أخرى لا تمت لهذا الإحساس بصلة..

ومن ثم تظهر الصورة في الحلم وقد فقدت عنصرها الانفعالي، الذي تحول إلى صورة أخرى لا تثير هذا الانفعال في الحقيقة.

مثال ذلك الحلم الذي أوردناه عن ذبح الكلب الأبيض. فقد تحولت عاطفة الحقد والكراهية عن زوجة الأخ وألحقت بالكلب، وكانت النتيجة أن شخصية زوجة الأخ لم تتضح مطلقًا إلا في خلال عملية التحليل.

٣- التجسيم:

أي تحويل المعاني المجردة، والمدركات العقلية في الحلم إلى صورة مرئية تتفق معها في المغزى فقد ترى الشر – وهو مجرد معنى– في صورة وحش كاسر، أو ترى الخير في صورة ملاك أو قديس.

٤- الرمز:

وهو عملية تحل بها صورة معينة محل صورة أخرى لتنم عنها بطريقة مقنعة.. كأن ترمز الأشياء المستطيلة كالعصا والثعبان والمئذنة وغيرها إلى العضو التناسلي للرجل، وترمز الأشياء المتسعة أو العميقة كالغرفة، والوعاء، والفنجان، إلى العضو التناسلي للمرأة. وثمة فارقان مهمان بين التجسيم والرمز:

الأول: أن التجسيم يترجم من المجرد إلى المحسوس، ومن المعاني إلى الصور، أما الرمز فيترجم من المحسوس إلى المحسوس ومن الصورة إلى الصورة.

الثاني: أن العاقة بين الشبه والمشبه به في حالة التجسيم تختلف باختلاف الأفراد، أما العلاقة بين الرمز والمرموز له به فهي علاقة عامة لا تكاد تختلف من فرد إلى آخر.

٥- البناء الثانوي:

وهي العملية التي يرتب الحلم بوساطتها محتوياته حيثما اتفق كلما اقترب الحالم من حالة اليقظة.. وأصدق تعبير عن هذه العملية ما قاله هافيلوك أليس: "دعنا نتصور اللاشعور يقول: ها هو ذا صاحبنا الشعور يقترب.. هذا الشعور الذي يعلق أهمية قصوى على

العقل والمنطق ويزن الأمور بميزان التجربة.. فلنسرع.. اجمع الصور وضعها بأي ترتيب كان قبل أن يدخل صاحبنا ليتسلم الزمام".

تلخيص

ونستطيع أن نوجز نظرية فرويد في الأحلام في هذه العناصر الخمسة:

١-لكل حلم معنى ينكشف بطريقة تداعي الخواطر.

٢-ينطوي هذا المعنى على رغبات مكبوتة.

٣-هدف الحلم إشباع الرغبة المكبوتة طال عهدها أو قصر.

٤-يكشف الحلم عن محتويات اللاشعور وتدل مادته على مبعث الاضطرابات النفسية.

٥-الطريقة التي يظهر بها الحلم تدل على بساطة أو قوة الاضطراب النفسي.

الفصل الثالث
الأحلام تحل المشكلات

هذه العبارة "وظيفة الأحلام حل المشكلات"، هي المحور الذي تدور حوله نظرية عالم النفس الإنجليزي "و. ريفرز"، وهو من علماء النفس الذين عاصروا فرويد، وتعرضوا لنظريته بالتعديل والإضافة، برغم تسليمهم بالقواعد العامة لنظرية فرويد، وخاصة فيما يتعلق بنظريته في الشعور واللاشعور. ومن المسائل التي تناولها ريفرز بإفاضة في نظريته عن الأحلام: مسألة الانفعالات في الأحلام، وخاصة أحلام الكابوس، ومادة الحلم ومحتوياته، وعلاقة الأمراض النفسية بالأحلام، وأخيرًا وليس آخرًا وظيفة الحلم التي يرى ريفرز أنها ليست إشباع رغبة كما قال فرويد، وإنما هي محاولة لحل مشكلات الحالم القديمة العهد أو الحديثة الوقوع.

الانفعالات في الأحلام

يتفق ريفرز مع فرويد في أن الانفعال قد لا يكون واضحًا في المضمون الظاهر للحلم، مع وجوده في المضمون الباطن، وذلك لأن الانفعال يتحول عندما تلد أفكار الحلم مضمونه الظاهر..

وحيثما وجد الانفعال في المضمون الظاهر، فلا بد من وجوده كذلك في المضمون الباطن، ولكن العكس ليس صحيحًا.. ذلك أن غرض الحلم ليس تغطية الأفكار الداخلية الخفية فقط، بل التقليل من حدة الانفعال المصاحب لها أيضًا. وتشذ عن ذلك أحلام الكابوس التي تصاحبها انفعالات شديدة.. وأحلام الكابوس كثيرة الحدوث في زمن الطفولة، وجائزة الوقوع في زمن النضج بسبب بعض الأمراض النفسية أو العصبية، وخصوصًا تلك التي يصاب بها المرء نتيجة للحوادث الأليمة أو الحروب..

والملاحظ أن الكابوس يكون عادة صورة طبق الأصل لأفظع ما شاهده الحالم من وقائع، ويكون مصحوبًا بانفعال عنيف قد لا يوجد له مثيل في حياة اليقظة، وهو ينتهي عادة بأن يصحو الحالم من نومه في حالة من الذعر، تتمة للحالة التي كان يعيش فيها أثناء الحلم، وتصاحب شعوره بالخوف كل علامات الخوف الجسمانية كتصبب العرق، والارتجاف، وسرعة ضربات القلب، واضطراب التنفس. وثمة أمران يلفتان النظر في أحلام الكابوس:

١. إن الحلم غالبًا ما يكون تكرارًا لحادثة حقيقية، وتظهر كما حدثت تمامًا بغير تعديل..

فإن كان هناك تعديل، ظهرت على هامش الحلم صورة وحوش مفترسة مثلاً، وفي هذه الحالة تخف وطأة الخوف قليلاً، مما يؤيد أن التعديل أو التحول يلفت نظر الحالم إلى الصورة الجديدة فتخف وطأة الانفعالات المصاحبة، والملاحظ أن حدة الانفعال تتناسب عكسيًا مع مدى التحول الذي يطرأ على أفكار الحلم، أي كلما زادت كمية التحول قلت حدة الانفعال..

مما يؤيد قول فرويد بأن التحول الذي يطرأ على أفكار الحلم إنما يهدف إلى التخفيف من حدة الانفعالات المصاحبة.

ويتخذ ريفرز من أحلام الكابوس دليلاً يستند إليه في قوله بأن وظيفة الأحلام هي محاولة لحل المشكلات.. فيقول: "لو أنعمنا النظر في أحلام الكابوس لاعترضتنا ثغرة واضحة إذا حاولنا التوفيق بين طبيعة الكابوس المخيفة المزعجة ونظرية فرويد القائلة بأن الحلم تحقيق رغبة.."وإني أرى أن الحلم ما هو إلا محاولة لحل عقدة تكونت خلال اليقظة، وأن هذه المحاولة تسير قدمًا في طريقها حتى حين تستلم الوظائف العليا للعقل إلى النوم.."وإذا كان لنا أن ندخل عامل "الرغبة" ضمن مسببات الأحلام، فرأيي أن الحلم هو إنكار مباشر للرغبة، ومحاولة لإخفائها ومنعها عن الظهور، وسأدلل على ذلك من واقع ما يجري في أحلام الكابوس:

"فالشخص الذي يحلم بالكابوس، يدل حلمه على تجربة قاسية أليمة تحاول أن تفرض نفسها على شعوره، وتقابل هذه المحاولة من بالكبت، ويحاول ما استطاع إبعاد التجربة أو الواقعة عن حيز انتباهه الواعي كلما حاولت الظهور ليخفي الشعور المؤلم أو الذكرى القاسية، وهذا هو أساس تكون العقدة.. والعقدة معناها صراع بين التجربة القاسية الأليمة التي تحاول العودة إلى الذاكرة، ورغبة الشخص في ألا تعود هذه التجربة إلى الظهور. وما دام الشخص واعيًا يقظًا، فإن الكبت تكون له اليد العليا في السيطرة على الموقف، ولكن متى وقع النوم، فإن الكبت يتنحى عن السيطرة، وعندئذ لا تجد التجربة ما يعوق سبيل ظهورها فتبدو بكل شدتها وعنفها، شأن القوى المضغوطة إذا أتيح لها متنفس. ألا يدفعنا هذا القول بأن الحلم ليس تحقيق رغبة، وإنما الإخفاق بعينه قد حاق بالرغبة، تلك الرغبة التي لن تتحقق ما دام المرء يقظًا واعيًا؟

"ولكن.. دعنا نختبر هذا النوع من الأحلام على أساس أنه حل لعقدة، فماذا نجد؟ نجد، في الظاهر، أنه يخفق تمامًا في حل العقدة لأنه لم يتمكن من إخفاء أفكار الحلم تحت قناع التحول في بداية الأمر.. ولكن عندما يشتد ساعد التحول ويأخذ في أداء وظيفته التي تهدف إلى الإقلال من حدة الانفعال المصاحب للتجربة أو الحادثة، فعندئذ نجد أن الحلم هو حل العقدة.

"والتحول يقوم بوظيفة التقليل المستمر من حدة الانفعالات المصاحبة للتجربة المؤلمة التي يرغب الحالم في إقصائها عن حيز شعوره، فيصل الحلم بذلك إلى حل مقنع للعقدة.. وتوضيحًا لذلك نقول أن الأحلام ليست مجرد حل للعقدة، ولكنها حل من نوع يختلف عن الحلول السليمة التي يمارسها المرء في حياة اليقظة، فهو حل أقرب إلى عقلية الطفل منه إلى عقلية الشخص الناضج.

"ولما كان حدوث الكابوس كثير الوقوع في زمن الطفولة ومحتمل الوقوع في حياة النضج، فإن حدوثه في زمن النضج يدل على التراجع إلى أساليب عهد الطفولة ""كما أن ظهور الانفعال في الكابوس بمظهره العنيف يشبه إلى حد كبير المخاوف الحادة التي تنتاب الأطفال، فإن المبالغة في الانفعال من خصائص عهد الطفولة، ولا شك أن الطفولة مرحلة من الحياة يكون الإنسان فيها عرضة لمزعجات انفعالية تمتاز بحدة تشبه إلى حد كبير الحدة الانفعالية التي تصاحب الكابوس.

"وعلى هذا، فالكابوس والأحلام التي تعيد تمثيل تجربة أليمة، إن هي إلا تراجع إلى زمن الطفولة، لأنها تحدث خلال النوم في حياة النضج بشكل أقرب إلى حياة الطفولة منه إلى حياة النضج..

وإذا أدخلنا في تقديرنا أول خطوة يخطوها التحول للتقليل من حدة الانفعال، وهي صور الوحوش المفترسة أو الأشباح التي تظهر على هامش الحلم لكي تخفي معالم الواقعة، لرأينا أن الوحوش المفترسة والأشباح من العناصر التي تتدخل كثيرًا في أحلام الأطفال، وإذن فظهورها في حلم البالغ مثل آخر من أمثلة التراجع إلى عهد الطفولة.

"وفي وسعنا، تمشيًا مع وجهة النظر هذه، أن نصف الأحلام بأنها رجعية، أي أنها تسلك في سبيل التعبير عن نفسها طريقًا عقليًا يتفق مع مميزات عهد الطفولة، إذا لم يكن صورة طبق الأصل للوظيفة العقلية في زمن الطفولة".

ويلخص ريفرز ما توصل إليه من نتائج في بحثه عن وظيفة الحلم، وكيفية أدائها هذه الوظيفة في العناصر الخمسة التالية:

١. الأحلام محاولات عقلية أثناء النوم لحل عقدة تكونت في حياة اليقظة، وهي محاولات من الصنف الذي يمتاز به زمن الطفولة، ذلك أن رسوخ التجارب القديمة العهد ينقلب إلى حوافز عقلية تلون عناصر التجارب الحديثة بلونها البدائي.

٢. التحول في الحلم يقوم بوظيفة الحد من حدّة الانفعال، أو فصله نهائيًا عن التجربة "وهذا هو رأي فرويد أيضًا".

٣. إذا لم تنضج عملية التحول أو توجد أصلاً، أخفق الحلم في حل العقدة وظهر الانفعال بشكل عنيف، كما هي الحال في أحلام الكابوس أو الأحلام السارة الشبيهة بأحلام اليقظة سواء في زمن الطفولة أو زمن النضج وكلما نضج التحول خفت حدة الانفعال ويكون الحلم عندئذ قد نجح في حل العقدة، وهو حل رمزي فقط.

٤. التحول الذي يعزوه فرويد إلى التمويه على الرقيب إن هو إلا نتيجة طبيعية للتعبير عن العقدة بوساطة الصور والرموز.

٥. بما أن الانفعال مرتبط ارتباطًا وثيقًا بزمن الطفولة فلا داعي مطلقًا للالتجاء إلى الرقيب لكي نفسر العلاقة بين المضمون الظاهر والمضمون الباطن فيما يتصل بالناحية الانفعالية.

محتويات الحلم

وكما يختلف ريفرز مع فرويد في وظيفة الحلم وكيفية أدائه هذه الوظيفة، كذلك يختلف معه في مادة الحلم ومحتوياته.. ففي حين يقول فرويد أن مصدر الحلم وأسبابه موجودة بين طيات رغبات الطفولة المبكرة، يقول ريفرز أن مجرد حدوث مشكلة أو عقدة في أي زمن من الأزمان يكفي لناء حلم. ويدلل ريفرز على ذلك يقدم نظرية مؤداها، أن هناك نشاطًا فعالاً وظيفته التمييز والاختيار يعمل أثناء الحلم، ويستمد

إما من المؤثرات التي تنبعث من نفس الحالم أو من المؤثرات التي تقع على حواسه من الخارج.. ودليل وجود هذا النشاط أن جرس "المنبه" قد يدق في ساعة معينة فينهض صاحبه من نومه ليؤدي عمله، في حين أن بكاء طفل صغير في هذه الساعة نفسها قد لا يوقظ صاحبنا من النوم، وإن كان يوقظ أم الطفل في الحال!

ومن هذا يستدل على أن النوم لا يطفئ شعلة طبقات الذهن جميعًا، بل يبقى منها أجزاء معينة نشطة فعالة حتى في أعمق حالات النوم. ولنا أن ننظر إلى المشكلات الحديثة العهد على أنها جزء من نفسية النائم يظل نشطًا فعالاً حتى حين يطفئ النوم شعلة التجارب الأخرى الأبعد عهدًا، واحدة بعد الأخرى.

ومعنى ما يقوله ريفرز أن ظهور التجارب الحديثة العهد في الحلم لا يكون على سبيل التمويه على التجارب القديمة وإلباسها ثياب الجدية كما يقول فرويد، وإنما هي تظهر تمشيًا مع وظيفة الأحلام وهي حل كل مشكلة أو عقدة طال عهدها أو قصر.. وهو يقول ذلك في صراحة ووضوح.

بعد مناقشة مستفيضة لهذه النقطة لا داعي للخوض فيها.. يقول: "يمكننا إذن أن نقدم قانونًا سهل الفهم، ميسور التطبيق مؤداه

أن ميكانيكية العقل خلال الحلم تعمل بآليتين:

١. آلية تكونها الوقائع البعيدة التي ترجع إلى زمن مبكر ويبقى نشاطها شديدًا، ويظهر على الأخص في النوم العميق "وسبب ذلك أن النوم يطفئ شعلة التجارب مبتدئًا بالقريب وماضيًا إلى البعيد كلما عمق النوم".

٢. آلية تكونها الحوادث القريبة العهد، وهي التي تظل مستمرة النشاط بسبب علاقة الحوادث القريبة بالعقدة القديمة التي ينبى عليها الحلم بعد أن تخمد شعلات الحوادث الأخرى القريبة العهد والتي لا تمت بصلة إلى موضوع العقدة المراد حلها.

أي أن يفرز، بمعنى آخر، يؤمن بأن المشكلة أو العقدة القديمة المراد حلها هي الأصل في بناء الحلم، فإذا جدت مشكلة قريبة العهد متصلة بهذه العقدة، فمن الجائز أن يدور الحلم حول هذه المشكلة القريبة العهد وحدها ويحاول حلها باعتبارها جزءًا من العقدة القديمة.

علاقة الأمراض النفسية بالأحلام

وتتجلى الأهمية التي يعلقها ريفرز على العقد أو المشكلات الحديثة العهد، لا العقد التي تكونت في عهد الطفولة وحده، وهي التي يعلق عليها فرويد الأهمية القصوى – في رأيه عن العلاقة بين

الأمراض النفسية والأحلام. ففي رأيه أن العقدة الحديثة يكون لها أكبر الأثر في تكوين الحلم، وأنها تسبب مرضًا نفسيًا قد يصطبغ بلون ما سبقه أو يلونه بلونه.. فإذا لم تكن المشكلة الحديثة قد بلغت حد العقدة وإنما لها علاقة بالعقدة القديمة فحسب، فهي أيضًا تحفز على بناء الحلم وتكوّن مادته.

وهو يرى أن العقل يطوي الزمن أثناء النوم، مبتدئًا من الحاضر ومنتهيًا إلى الماضي، بحسب عمق النوم.. ولكن العقل لا يبدي من مشكلات الحاضر إلا أهمها بالنسبة للحالم، وعلى الخصوص إذا كان لها ارتباط بمشكلة أو عقدة قديمة.. ومن ثم فإذا أردنا تفسيرًا شاملاً للحلم، وجب ألا نتخطى بنظرنا المشكلات الحديثة على اعتبارها رموزًا أو إشارات تشير إلى مشكلات قديمة، كما يقول فرويد، وإنما يجب أن نلم بالمشكلات الحديثة أيضًا ونعرف مدى تأثر الحالم بها، ومدى ارتباطها بالمشكلات القديمة العهد.

وهو في ذلك يقول: "إن ميل فرويد إلى اتخاذ أحداث الطفولة وحدها أساسًا عامًا، وإهماله العقد الحديثة التكوين يعد نقطة ضعف في نظرية المرض النفسي والأحلام على السواء، فقد أثبتت التجارب أن لبعض العقد الحديثة التكوين أثرًا في بناء الحلم والمرض النفسي أكبر مما كان يظن".

تلخيص

ومما سقناه عن نظرية ريفرز في الأحلام، يمكن أن نوجز نظريته في العناصر التالية:

١. يقوم الحلم على المشكلات والحوادث والعقد القريبة العهد ثم يمضي إلى المشكلات والعقد القديمة كلما عمق النوم.

٢. تتخذ الأحلام صفة الرجعية. أي أن العقل يعمل في أثناء الحلم بآليته الأولى التي اكتسبت في عهد الطفولة.

٣. وظيفة الأحلام حل العقد والمشكلات التي عجزنا عن حلها في أثناء اليقظة.

٤. إذا أخفق الحلم في حل العقدة حدثت الرؤيا المزعجة التي نسميها الكابوس، والتي تتجلى فيها الانفعالات عنيفة حادة لم تنلها يد التحول.

٥. كلما نضج التحول زاد حظ الحلم من النجاح في أداء وظيفته، ويكون نجاحه بطريقة رمزية، أي إظهار المشكلة كما لو كانت قد حلت.

الفصل الرّابع

الأحلام مهرب من مشكلات الحياة

يرى فرويد الأحلام تحقيقًا لرغبات مكبوتة أو لم تتحقق في اليقظة.. بينما ريفرز يراها محاولة لحل العقد والمشكلات.. أما عالم النفس الألماني فيلهلهم شتيكل فيرى أن "الحلم يعبر عن الطريقة التي يحاول الحالم الهرب بها من مشكلته"، وتتلخص نظرية شتيكل في أن الأحلام عبارة عن تفكير لا سيطرة لنا عليه ، وهو دائم لا ينقطع، فنحن نحلم في اليقظة كما نحلم في النوم.. أما في حالة اليقظة فتعمل قوى تفكيرنا في اللحظة الواحدة في عدة طبقات بعضها فوق بعض.. وفي أسفل هذه الطبقات ينشأ الحلم، وقد ينبثق إلى السطح في حالة اليقظة فتكون أحلام اليقظة، ولكنه غالبًا ما يظهر خلال النوم في حالة الغيبة التامة للشعور. وسواء وقع الحلم في اليقظة أو في النوم، فهو يعبر عن مشكلة لم يرضها العقل الواعي لما يصاحبها من شعور مؤلم فيعمل على طردها أو إبعادها بما وسعه من قوة وحيلة.

الرمز إلى الدين وإلى المرض النفسي

وقد كان للعالم شتيكل فضل تقديم نوعين جديدين من الرموز

التي تظهر في الأحلام، وهما الرمز إلى الدين، والرمز إلى المرض النفسي بتجسيده شخصًا. وهو يسوق تدليلاً على تجسد المرض النفسي في الحلم على شكل شخص معين، هذا المثل:

"جاءني شاب يشكو من التسلط العصبي مقرونًا بالخوف وكان يقسو على نفسه في الطعام فلا يتناول منه إلا الخضر دون اللحم، كما فقد كل قابلية للدرس، حتى بلغ مرحلة جعلت حياته جحيمًا لا يطاق.. وفي خلال زياراته الأولى، تراءت له في حلم العبارة الآتية: "يجب أن يعرف ألفونسو ملك إسبانيا أن مؤامرة تدبر لاغتياله"..

"ولما كنت لا أميل إلى الأخذ بأن "الملك" في الحلم يرمز إلى "الأب" فقد أجلَّت تحليل هذا الحلم حتى يحين الوقت المناسب لتحليله.. وحان الوقت بعد مضي عام على الحلم، حيث كان الكفاح عنيفًا بيني وبين المريض بسبب قوة المقاومة التي كان يبديها برغم رغبته العميقة في الشفاء..

"وذات يوم قال لي أنه يسمع أصواتًا داخلية تقول: لا تقتلني.. لا تقتلني.. دعني أعيش"، فعرفت على الفور أن هذه الأصوات ترمز إلى مرضه النفسي إذ كان على وشك الشفاء منه. واتضح لي عندئذ أن شخص الملك ألفونسو في حلمه السابق كان يرمز إلى مرضه

النفسي كذلك! وسألته عن علاقته بالملك ألفونسو فقال أنه ولد في نفس اليوم الذي ولد هو فيه.. وعندي أن هذه العلاقة تكفي لأن يتخذ المريض الملك رمزًا لمرضه، وأما المؤامرة التي تدبر لاغتياله، فهي سعي المريض إلى العلاج، أي القضاء على مرضه".

ومثل آخر يقدمه شتيكل على تجسد المرض النفسي، حلم به صاحب الحلم الأول:

"رأيت أمي وأخي محبوسين في غرفة مظلمة، وكان أخي يحمل في يده سكينًا كبيرة فاستولى عليّ الخوف منه، وقلت له أخيرًا: "إنك ستفقدني عقلي"، فضحك أخي ضحكة شريرة وقال: "ستظل دائمًا حبيسًا معي، ونظرت إلى قدميّ فرأيت بهما قيدًا حديديًا".

وفي هذا الحلم يرمز الأخ إلى المرض النفسي، ويرمز القيد الحديدي إلى شل حركته نتيجة لمرضه النفسي. ويرى شتيكل خمسة أنواع من الرموز ترمز إلى المرض النفسي هي:

١. مصادر السلطات: الملك، والوزراء، ورجال الدين، والأب، وناظر المدرسة.. إلخ.

٢. الأقارب: الأخ، الأخت، العم، والعمة.. إلخ.

٣. المتصلون بالعائلة من بعيد: كالخدم، والأصدقاء والأعداء.

٤. الوحوش الكاسرة، والشياطين، والمجرمون، والشحاذون.

٥. الأشياء المقفلة أو المقيدة، كالقفص، والغرفة، والبيت الضيق أو الجديد، والحبل السميك، والسلسلة.. إلخ. وقد صب شتيكل جانبًا كبيرًا من اهتمامه على رموز الحلم.. وقسم هذه الرموز بحسب دلالاتها، وفي رأيه أن ثمة مجموعات معينة من الرموز تشير إلى كل نوع من الأمراض النفسية، أو أعراضها.. فاللعثمة تدل عليها رموز خاصة، والخجل له رموز معينة، والعنة تشير إليها رموز معينة، وكذلك البرود الجنسي وغيرها من أعراض الأمراض النفسية.

فمن الرموز التي ترمز إلى العثمة:

١. أن يقطع المرء شوطًا بعيدًا في الاتجاه الخاطئ.

٢. الانزلاق على جدار أملس.

٣. الخوف من الوحوش الكاسرة أو السيارات المسرعة.

٤. الخوف من المجانين والمخمورين والثورات وغيرها من الظروف التي يوضع فيها عامل ضبط النفس في الميزان.

٥. الإنذار بالحريق.

٦. الخوف من رؤيا اللصوص أو الصراخ وطلب النجدة.

٧. انهزام البوليس أمام اللصوص، أو الانهزام في المباريات.

٨. احتباس الأنفاس.

٩. الانحصار في مكان ضيق.. إلخ.

ومن أمثلة ذلك حلم رأى صاحبه أن عليه أن يتسلق جبلاً ولكن أمامه صعوبات كثيرة. فعليه أن يعبر قنطرة، وأن يتخطى نتوءًا.. وفجأة يتوقف، فقد انحبست أنفاسه!

والخجل يرمز إليه في الحلم برؤيا الأشياء الحمراء، أو الخوف من النور الساطع.. ومن أمثلته أن فتاة حلمت أنها تسير برفقة صديق لها وتتحدث معه في شئون مختلفة.. ثم يمران ببيت تقف أمامه مجموعة من الفتيات يضحكن في جذل وهن ينظرن إليها، ويقول الصديق: "نعم إنهن سعيدات يستطعن أن يضحكن".. وفجأة تظلم الدنيا، وترى الحالمة نورًا يشع من نافذة، وتلاحظ أن سكان المنطقة يستعملون الستائر الحمر، فيظهر النور الذي يشع من خلفها مضرجًا بالحمرة. وواضح أن الحالمة كانت هادئة في أول الحلم إلى أن

ضحكت الفتيات فخطر لها أنها أتت شيئًا مخجلاً – وهو صحبتها للفتى – فخجلت.

وأحلام العنة تدور حول تأكيد العجز وعدم القدرة.. ومن أمثلتها ما حلمه فتى مصاب بالعنة:

"أردت أن أقوم بزيارة سيدة، ووجدتني أمام فيلا أنيقة ولكنها مغلقة بإحكام. حاولت أن أدق الجرس ولكني لم أسمع له صوتًا، ثم أطلَّت من النافذة امرأة عجوز وقالت لي: "الباب مفتوح، اضغط بقوة على المقبض". وحاولت، ولكن الباب لم ينفتح. وجال في خاطري أني سأكون أضحوكة لو حاولت أن أطلب المعونة، وعندما قررت أخيرًا أن أطلب المعونة انحبس صوتي ولم ينطلق.. ثم ظهر فجأة رجل فظ كأنه جزار، نظر إليّ شزرًا ثم ضغط على مقبض الباب ففتحه، ولكني ألغيت فكرة الزيارة وهرولت راجعًا".

والعجز غاية في الوضوح في هذا الحلم: فالحالم لا يستطيع أن يفتح الباب، ولا يسمع للجرس صوتًا، ويريد المعونة فلا يستطيع طلبها، بل لا يقوى على الدخول حتى عندما يفتح له الباب! وهكذا في سائر أنواع المشكلات النفسية، أو أعراض الصراع النفسي، يرى شتيكل أن ثمة رموزًا معينة تشير إلى موضع الكبت أو الصراع.

وكما كان شتيكل أول من أشار إلى أن المرض النفسي يمكن أن يتجسد في الحلم بشكل شخصي، كذلك كان أول من قال بأن الفضيلة قد تكبت كما تكبت الرذيلة، وتشير الأحلام عندئذ برموز معينة إلى الفضيلة المكبوتة.. وفي ذلك يقول: "يميل تلامذة فرويد دائمًا إلى البحث عن الناحية الجنسية المكبوتة كحل للمرض النفسي، ولكني وجدت حالات لأناس بوهيميين لا دينيين، منغمسين في الرذيلة، كان سبب المرض عندهم، لا كبت الناحية الجنسية، بل كبت الناحية الأخلاقية الدينية.. وهم ولا شك على نقيض الأولين الذين كيفوا رغباتهم الجنسية، وإن كانوا يشتركون معهم في أنهم يعانون الكبت أو الصراع بين الغريزة أو العاطفة وبين القمع.. وهناك ولا شك حالات مرجع المرض فيها إلى خليط من نوعي الكبت الجنسي والديني مع احتمال ظهور أحدهما فقط إلى حيز الوعي، غير أن الأحلام تشير إلى التدين بوضوح".

ويسوق مثلاً على ذلك الحلم التالي: "جاءني شاب أرخى لرغباته الجنسية العنان، فاعتدى على عفاف العذارى، وخان أصدقاءه مع زوجاتهم، دون أن يردعه وازع من دين أو خلق.. جاءني يشكو الأرق، والمخاوف، والقلق.. فما الذي يمكن أن يخافه هذا الشاب الذي يبدو كأنه خلى كل ما بينه وبين الفضيلة، إلا الله عز وجل؟".

"وروى لي في زيارته الأولى هذا الحلم: "كان علي أن أؤدي امتحانًا في الدين كالامتحان الذي كنت أؤديه في المدرسة، ولكني لم أكن مستعدًا. وكان المدرس يحمل ملفًا ضخمًا يحوي كل ذنوبي وأخطائي.. واستيقظت من نومي وقد استولى عليّ القلق الشديد المصحوب بخفقان القلب".

إن نزعته الدينية التي حاول قمعها كانت هي السبب في مرضه بالخوف والقلق.. كانت الأجواء العاصفة تقلقه وتقض مضجعه، ويوم ماطر عبوس كان يصل به إلى أقصى درجات التعاسة، فضلاً عما كان ينتابه من وساوس تجاه الأمراض، ومخاوف شديدة من العمليات الجراحية. فإن دل هذا على شيء، أفلا يدل على خشية الله والخوف من العقاب؟

المعنى المزدوج للحلم

ويرى شتيكل أن الرمز الواحد قد يرمز في الوقت نفسه إلى عدة أشياء، لا نتيجة لعملية التكثيف التي يقول بها فرويد، ولكن نتيجة لطبيعة الفرد، وطبيعة مشكلته.. وكل حلم في رأي شتيكل، له في أكثر الأحيان تفسيران:

١. تفسير يقوم على المشكلة التي يعانيها الفرد.

٢. وتفسير يقوم على الطبيعة الوظيفية لعقل الفرد التي ينفرد بها دون سواه.

وتوضيحًا لذلك يقدم هذا المثل لحلم حلم به شاب تعرف حديثًا إلى فتاة: "رأيت أني أفتح بالعنف بابًا مغلقًا، وقد نجحت في تحطيم القفل، ولهذا لم يعد الباب يقفل جيدًا كما كان".

أما التفسير القائم على المشكلة التي يواجهها الحالم، فيقدمه شتيكل بقوله: "لما كان الحالم قد تعرف بفتاة عذراء كان في نيته أن يعتدي على عفافها، فقد ظهرت نية الاعتداء في الحلم مرموزًا إليها باغتصاب الباب عنوة، أما القفل الذي تحطم في الحلم، فهو رمز إلى غشاء البكارة".

وأما التفسير القائم على الطبيعة الوظيفية لعقل هذا الشاب بالذات، فيقدمه بقوله:

"إن الحالم يقول لنفسه في هذا الحلم، أنا أقتحم طريقي إلى داخلية نفسي، ولكني يتسنى لي ذلك عليّ أن أحطم شيئًا عزيزًا علي، يجب أن أحطم وهمًا متسلطًا عليَّ كان لي بمثابة الحارس الأمين، "يقصد بذلك إلى المرض النفسي الذي ألجأه إلى الطبيب".

والتفسيران، مختلفان تمامًا وإن كانت الرموز واحدة.. فالباب

المحطم يشير إلى الرغبة الجنسية من ناحية، وإلى المرض النفسي من ناحية أخرى.. وعملية التحطيم تشير إلى الاغتصاب من ناحية، وإلى تحطيم المرض النفسي من ناحية أخرى.. ولا يتعارض أي من التفسيرين مع الآخر، بل يكمل أحدهما الآخر.. غاية ما هناك أن التفسير الأول يقوم على ترجمة الرموز إلى ما يتعلق بالكبت وردع الرغبات، والثاني يقوم على ترجمتها إلى ما يتعلق بعمل العقل بحسب طبيعة تكوينه.

الأحلام تفصح عن مشكلات الحالم

ولكي يدلل شتيكل على أن الأحلام تفصح عنت مشكلات الحالم، ومنها يستطيع المحلل الخبير أن يقف على طريقة تفكيره، ونوع شخصيته، والعقدة أو المشكلة التي يحاول الهروب منها في حياة اليقظة. يذكر الحلم الآتي على سبيل المثال، لرجل في الثانية والأربعين من عمره، جاء ينشد الخلاص من مشكلته:

"رأيت أني جالس على الشاطئ وحولي أفراد بعضهم جلوس وبعضهم رقود. وفجأة ظهر حوت كبير أخذ يلعب في الماء وعلى مقربة مني حتى لأكاد ألمسه بيدي. وأحسست بعاطفة الشفقة نحو هذا الحوت، ولكن سرعان ما تحولت هذه العاطفة إلى كراهية شديدة له، حتى أنني قررت أن أضع حدًا لعبث هذا الوحش

الكاسر.. وعدت إلى البيت وأحضرت بندقية الصيد وبعض الخرطوش، وكمية من الطعام والملابس وبعض الأشياء الأخرى، ثم عدت واستلقيت في هدوء بعض الوقت، وفجأة ظهر الحوت ثانية في الأفق، ومضى وقت طويل وهو يسعى إلى الشاطئ وأنا أرقبه. وكان على الشاطئ رجل يصطاد، فمر الحوت به والتهم سنارته، ثم استدار إلى الصياد نفسه يريد به شرًا..

"وأسرعت إلى حيث ذخيرتي وفي نيتي أن أقتل الحوت. ولكني توقفت، فقد كان الخرطوش مدفونًا في الرمل، فاستخرجت اثنتين وناديت جيراني ليخرجوا غيرهما.. وخطر لي أنها مغامرة أنا أحاول قتل حوت ضخم كهذا ببندقية صيد عادية.. فلو أني جرحته لجعلته أكثر غضبًا وهياجًا..

ورأيت نفسي آتي بالمزيد من الذخيرة، وأقصد الصياد الذي كان الحوت يهدد حياته، ولكني وجدت أن الحوت قد تركه وأخذ يسبح على طول الشاطئ.. وعند ذلك تبينت أن بندقيتي قديمة تراكم عليها الصدأ، فضلاً عن كونها لا تطلق إلا رشًا!

"وفجأة رأيت أن الحوت قد خرج عن متناول يدي، وأن عليَّ أن أجري ميلاً قبل أن ألحق به.. واستيقظت مندهشًا لطول هذا

الحلم الذي يستغرق في حياة اليقظة مدة تقاس بالساعات!".

أما المشكلات التي يفصح عنها الحلم، فلكي نعرفها، يجب أن نعرف شيئًا عن الحالم نفسه..

إنه رجل في الثانية والأربعين، صحيح البدن، قوي البنية، ناجح في حياته العملية، إلا أنه لم يعثر بعد على الزوجة الصالحة. وقد كانت له علاقة استمرت ثلاث سنوات بممثلة مطلقة كان يحبها، وقد صحبها في بعض رحلاته وأسفاره، ولكنه كان دائم التساؤل: هل يتزوجها أم لا.. أما العقبات التي كان يرى أنها تعترض الطريق فهي:

أولاً: أنها في الخامسة والثلاثين، وهو يرى من الحكمة أن يجد زوجة أصغر سنًا.

وثانيًا: أنها ممثلة، ومن ثم كان يخشى ألا تستطيع العيش كربة بيت توقف جهودها على تدبير شئونهما كزوجين، بل كان يخشى أن تتابع بعد الزواج حياة الفن واللهو.

وعقبة ثالثة: أمه التي انفصل عنها أبوه منذ وقت طويل، وكان هو حدثًا صغيرًا، فخيل إليه أنه سوف يتكفل بها، وإن كانت في الواقع لا تحتاج إلى كفالة، إذ كان لها معاش متواضع، وكانت تؤجر بعض غرف منزلها.. وقد كان شديد التعلق بأمه، شديد الإعجاب بها.

وحاول مرارًا أن يربط بين أمه وصديقته برابطة الصداقة ولكن غيرة المرأتين إحداهما من الأخرى، التي كانتا تخفيانها تحت ستار من المجاملات المتكلفة، جعلته يخفق في محاولاته.

وأمام هذه العقبات جميعًا، تخلى عن فكرة الزواج، وبقى محطم القلب، متلهب العاطفة، وأصبح الشك من صفاته البارزة، ولا عجب، ففي داخلية نفسه حرب لا تهدأ بين العاطفة والعقل، أو بين الرغبات والموانع.

وهذا الحلم الذي حلمه إنما يبرز أساس المشكلة، وهو تعلقه الشديد بأمه.. كما يبرز تردده وشكه في أنه يستطيع التغلب على هذا القلق ليتصرف بوحي من رغباته الخاصة.

والحوت في الحلم رمز إلى تعلقه بأمه.. وهو يتباطأ في قتل الحوت "أي قلت القلق" برغم أنه يتظاهر بقتله.. وقد أبدى له الحلم عطفه الشديد على أمه "بإظهاره العطف على الحوت".. ثم يتحول العطف إلى كراهية، لأن أمه تعترض سبيل تحقيق رغباته.

وأمه – في رأيه – خطر شديد عليه يجب القضاء عليه – على الخطر لا على الأم – ومن ثم رأى نفسه في الحلم على شكل صياد أراد الحوت "أمه" أن يبتلعه.. أما بندقيته القديمة فترمز إلى عاطفته

القديمة تجاه أمه حين كان طفلاً، وهي عاطفة لم تعد تناسب ما بلغه من سن. أما جريه على طول الشاطئ في أثر الحوت دون جدوى، فيرمز إلى عجزه عن القضاء على خطر أمه. والحلم في جملته يقول للحالم: "يجب أن تلقي سلاحك فلن تتمكن من تحطيم أمك أو حتى اللحاق بها!" وفي رأي شتيكل أن الأحلام لا تفصح عن المشكلات المسيطرة على الحالم وحسب، بل هي مرآة التفكير وهو في ذلك يقول: "الحلم مرآة التفكير. وصور الحلم توضح لنا طبقات هذا التفكير. أنا نوع هذا التفكير فترمز إليه الرموز التي يمكن تشبيهها بجمرة كبيرة من الناس، يشق واحد منهم طريقه إلى الأمام فتسمع صوت همهمة وهو يشق الطريق بين الناس.. ويعتلي هذا القائد الذي تقدم منبر الخطابة أو صدر المكان – وهو يرمز إلى الفكرة المسيطرة أو البارزة في عقل الحالم ويحاول أن يقنع النائم بكل ما لديه من قوة وحجة".

تلخيص

ومما أسلفناه من آراء شتيكل في الأحلام، يمكن أن نخرج بالعناصر البارزة التالية في نظريته:

١. الحلم يعبر عن محاولة للهروب من مشكلات الحياة.

٢. تقع الأحلام نتيجة لآلية "ميكانزم" تفكير لا سيطرة لنا عليه. وهذا التفكير يعمل على الدوام في طبقات العقل المتعددة.

٣. لكل حلم أكثر من معنى، ولكل رمز جملة مدلولات.

٤. تكشف الأحلام مشكلات الحالم، وتفصح عن نفسيته وشخصيته، فهي أشبه بمرآة لتفكيره.

الفصل الخامس

الأحلام تحقق التكامل الفردي

من المدارس الحديثة في علم النفس، مدرسة العالم النفسي السويسري كارل يونج التي أطلق عليها اسم مدرسة "علم النفس التحليلي" ويونج يسلم بكثير من العناصر التي اهتدى إليها فرويد، ولكنه بلغ في شرحه لعلم النفس درجة من الفلسفة العميقة جعلته غير سهل الهضم للرجل العادي. ويسلم يونج بنظرية فرويد في اللاشعور، ونظرية الكبت ضمنًا، ولكنه يقسم اللاشعور إلى قسمين "شخصي" لا جمعي وهو يفرق بين القسمين بقوله:

"اللاشعور الشخصي هو مخزن المكبوتات، مما مر بالشخص في حياته من تجارب وحوادث. وهذه المكبوتات أدوات تركناها في دولاب مقفل ظانين أننا لسنا بحاجة ماسة إليها، وعلى هذا فاللاشعور الشخصي مخزن للقوى الكامنة المهملة التي قد نكون في أمس الحاجة إليها لي نبلغ حياة متكاملة متزنة. والأشياء المكبوتة في اللاشعور، تتضمن الصفات الأنثوية للرجل والصفات الذكرية للأنثى وإذن فلا يستغرب في الأحلام أن يرى الرجل نفسه في الحلم على

شكل امرأة، وأن ترى المرأة نفسها في الحلم على شكل رجل".
أما اللاشعور الجمعي فهو مخزن أعمق وأوسع، يحوي الذكريات البعيدة التي خلفها التاريخ البشري للإنسانية، بما في ذلك العقائد البدائية، وطرق التفكير والسلوك التي كانت سائدة في مجتمعات الإنسان الأول فيما قبل التاريخ.. وهذه العقائد وأساليب التفكير والسلوك قد تضمنتها، على مر العصور، التقاليد والعادات الاجتماعية والدينية، ووصلتنا منها آثار ما زالت عالقة بعقائدنا المعاصرة. وقد تكون العصور في تعاقبها، قد طمست معاني الرموز القديمة، ولكنا في الأحلام نرجع القهقري إلى الوقت الذي كانت فيه تلك الرموز حقيقة واقعة".

ويؤمن يونج بأن الأحلام هي "الطريق السلطاني إلى اللاشعور" كما وصفها فرويد ولكنه يختلف مع فرويد في وظيفة الحلم.. فبينما يرى فرويد الأحلام مفتاحًا إلى مكبوتات عهد الطفولة، يرى فيها يونج "اقتراحات" لحل المشكلات الذهنية، أو لاكتساب موقف متزن من الحياة، عن طريق إدراك العناصر المكبوتة للشخصية، تلك العناصر التي هي على طرفي نقيض من الشخصية الظاهرة للعيان. ومن العناصر المشهورة في نظرية يونج، تقسيمه الشخصيات الإنسانية إلى نموذجين، النموذج المنبسط والنموذج المنطوي ولكن

ثمة نماذج كثيرة لهذا التقسيم فهناك مثلاً المنبسط في تفكيره والمنبسط في مشاعره، وهناك المنطوي في تفكيره والمنطوي في مشاعره، وهكذا مما يكثر من النماذج الإنسانية فلا تعود مقصورة على قسمين اثنين وحسب.

ومن العناصر الرئيسية في نظرية يونج أيضًا، أن مشكلة الفرد العصري دينية في أساسها. فالفرد العصري أصبح يستنكر المراسم والعقائد التي كانت فيما مضى تعمل كمنافذ لقوى النفس المختلفة، وبذلك أصبح يتهدده خطر القوى النفسية المكبوتة التي لا تجد لها منفذًا في هذا العصر الحديث فمن رأي يونج أن الحوافز اللاشعورية، قوة نفسية نشطة موجودة فعلاً، ولكنها أصبحت لا تتلاءم مع هذا العالم المنطقي الذي نعيش فيه.

عملية التكامل الفردي

ومن الدعائم الرئيسية التي تقوم عليها نظرية يونج أن في النفس الإنسانية عملية آلية تهدف إلى التكامل الفردي تهدف إلى أن تجعل من الإنسان فردًا متوحدًا، متكاملاً بوساطة التوفيق بين شقي النفس المتناقضين: الشعور واللاشعور، وبغير هذا التوفيق لا تتم للإنسان الحياة المتزنة الصحيحة. فالقوى النفسية اللاشعورية لن تكف عن محاولة الظهور والانبثاق. والشعور يردع منها ما يتعارض مع التقاليد

والعادات وأساليب التفكير القائمة. فإذا لم يوفق الفرد بين هذين الشقين ويدمجهما في كل متحد لا يتجزأ، نشأ الاضطراب الذي نسميه بالمرض النفسي.

ويوضح يونج نظريته هذه بقوله: "إن الشعور واللاشعور لن يكونا كلاً متحدًا إذا ما كبح أحدهما الآخر وسيطر عليه. والطريقة الوحيدة لأن يتصافيا ويتعاونا، هي أن تقوم بينهما معركة عادلة يتمتع فيها كل منهما بحقوق متماثلة. دع الشعور يدافع عن نفسه ويحمي الشخصية الإنسانية بوسائله الخاصة، واترك للجانب الأعمق من الحياة "اللاشعور" فرصة للعمل على طريقته الخاصة في حدود الطاقة.. والعجيب أن هذه المعركة هي السبيل الأوحد لتعاون الشعور واللاشعور على توحيد الشخصية الإنسانية واكتسابها الاتزان. فهذه المعركة تشبه قصة "الحديد والمطرقة". فقطعة الحديد تظل ترزح تحت عبء المطرقة وضغطها "كما ترزح النفس تحت تضارب شقيها المتناقضين" حتى تتشكل في النهاية بالشكل المطلوب، وتصبح كلاً لا يتجزأ".

الأحلام وعملية التكامل

وتدور نظرية يونج في الأحلام حول عملية التكامل هذه. فالأحلام برموزها العجيبة تكشف لعين الخبير عن الصراع الذي يدور

في نفس الفرد في سبيل التوحد والتكامل.. وتبدو رموز عملية التكامل في الأحلام على شكل صور ذات طابع بدائي، وتصور لنا وظيفة هذه العملية ومرماها، مستعينة في ذلك بما كان سائدًا في العصور السالفة من رموز تشير إلى الاتحاد والتكامل، وأخص هذه الرموز ما يسميه يونج رمز "ماندالا".. و"مندالا" كلمة سنسكريتية معناها الدائرة، أو على الأصح الدائرة السحرية، ورمزها يشمل كل الأشكال الدائرية أو المربعة أو المستطيلة المتكاملة، أو بعبارة أصح، كل ما ينبعث حول مركز ويحيط به.. ومن الملاحظ أننا إذا أردنا الإشارة إلى شيء يتكامل رمزنا له، في غير شعور منا، بدائرة، أو بمربع، أو بمستطيل.. ورمز "ماندالا"، يظهر في معظم الأحلام، إن لم يكن فيها كلها ليفصح عن رغبة الفرد في اكتساب الاتزان والتوحد.

ويدلل يونج على ظهور رمز ماندالا في الأحلام، بأن يسوق أمثلة من أحلام أحد مرضاه، وهو شخص مثقف ثقافة واسعة. وقد جمع يونج من أحلام هذا الرجل نحو أربعمائة حلم كلها تشير إلى عملية التكامل، مستخدمة في ذلك رمز ماندالا.. وفيما يلي نسوق بعض هذه الأحلام توضيحًا لما يقول به يونج في التكامل والماندالا:
"حلم الرجل أنه في حفلة، وعند تأهبه للخروج أخذ قبعة غريبة بدلاً من قبعته".

ويرى يونج أن القبعة بما أنها غطاء للرأس الذي هو مصدر التفكير، فهي إذن رمز إلى الشخصية. وإذن فالقبعة الغريبة تعني شخصية غريبة. والقبعة مستديرة، وإذن فهي تتضمن أول إشارة إلى الماندالا.

"حيّة ترسم دائرة حول الحالم، وهو واقف كالشجرة كأن قدميه سمرتا في الأرض".

لما كان رسم دائرة حول شيء يعني، عند الأقدمين، أن هذا الشيء مقدس أو لا يجوز الوصول إليه، فالمريض إذ يقف مثبتًا في وسط الدائرة إنما يحقق رغبته القوية في الفرار من محتويات اللاشعور. وقد أحس المريض بعد هذه الرؤيا بالراحة والسرور، فقد نجح في أن يرسم لنفسه منطقة يتسنى له فيها أن يجرب اللاشعور، ويرخي العنان لرغباته، وبهذا فقد اللاشعور صبغته المخيفة، ونشأ الإحساس بالسرور.

"رجل ينقده نقودًا ذهبية في راحة يده، ولكن الحالم يغضب ويرمي بالنقود إلى الأرض، ثم سرعان ما يتملكه الندم الشديد على ذلك. وتمر أمامه بعد ذلك مناظر سريعة متلاحقة".

الذهب هنا يرمز إلى القيمة التقليدية للأشياء. وهذه القيم

العقلية التقليدية قد فقدت إغراءها للحالم، ولذلك قذف بها أرضًا، ولكن ألا يحتمل أن تكون هذه القيم هي حجر الأساس في كيان الفرد العصري؟ هذا الاحتمال هو الذي أشاع الندم في نفس الحالم.

"جمجمة ميت أراد الحالم أن يطوح بها بعيدًا، ولكنه لم يستطع، وتدريجيًا تحولت الجمجمة إلى كرة حمراء، ثم إلى رأس امرأة يشع منها الضوء".

الجمجمة تمثل الوجود الإنساني في مظهره البدائي، ولذلك أراد الحالم أن يبعد هذا المنظر جانبًا، ولكنه لم يستطيع، وتحولت الجمجمة إلى كرة حمراء، الأرجح أنها الشمس عند شروقها، يؤيد ذلك أن الكرة سرعان ما تحولت إلى الرأس الذي يشع منه الضوء.

"هناك أناس كثيرون وكلهم يسيرون في مربع متحركين إلى اليسار. وليس الحالم في وسط المربع "في المركز" بل على الجانب الأيسر".

في هذا الحلم يظهر المربع للمرة الأولى، والمربع يشبه الدائرة في كثير من الوجوه، إذ هو فراغ محاط بأربعة أضلاع، ووفقًا للعقائد الدينية يشير "اليمين" إلى طريق الصواب، أما "الشمال" فهو طريق الخطأ، وإذن فالتحرك إلى الشمال معناه التحرك في اتجاه اللاشعور،

أي ضد التقاليد والعرف. ويخرج يونج من سرد هذه الأمثلة بقوله:

"فإذا صح أن كل فرد يسعى إلى التكامل والتوحد، ولا شك عندي أن هذا صحيح، فإن الماندالا تعد ظاهرة جماعية يجربها كل فرد سواء أدرك هذا أو لم يدركه.

"وصحيح أننا نجابه بالعقبات إذا أردنا إثبات ذلك تجريبيًا، ولكن هذا لا يمنع من الاعتقاد بأن الماندالا تلعب في كل فرد دور "القطب الخفي" الذي يدور حوله كل شيء مما يفعله المرء، أو يتبدى في خواطره وأحلامه. فكل حياة في الوجود تسعى إلى التكامل والتوحد، وعلينا أن ندرك هذه الحقيقة ونخرجها إلى حيز التنفيذ. فالحياة لا تطيب إلا للشخص الذي يجربها أو يحياها على حقيقتها..

"وشواهد التاريخ تنطق بأن رمز الماندالا كان سائدًا منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا.. ففي وسعنا أن نرجع رموز الأحلام إلى الوراء ما شئنا من حقب التاريخ، وأن نحللها تحليلاً يقوم على وقائع أو عقائد أو تقاليد أو عادات كانت موجودة فيما سلف من تاريخ البشرية. وهذا هو السند الذي أرتكن إليه في إقامة دعائم نظريتي في الماندالا ورموزها فإن تجاربي الطويلة، وأبحاثي المستفيضة، قد أثبتا

لي أنه يمكن دائمًا مقارنة رموز الماندالا بما كان موجودًا في سالف عصور التاريخ".

تلخيص

ويمكننا أن نوجز ما أسلفناه من نظرية يونج في الأحلام فيما يلي:

١. ينقسم اللاشعور إلى قسمين: قسم "شخصي" يضم المخزونات أو المكبوتات التي يمكن للفرد أن يفيد منها في اكتساب التوازن النفسي، وقسم جمعي يضم المخزونات التي خلفها التاريخ البشري كله.

٢. لابد من تعاون الشعور واللاشعور حتى يكتسب الفرد شخصية متزنة متكاملة.

٣. تجري عملية التكامل الفردي في سبيلها ساعية إلى توحيد الفرد، ويمكن أن نكشف عن هذه العملية بوساطة الأحلام.

٤. يرمز لعملية التكامل الفردي برمز ماندالا، أي الدائرة التي تدل على الاتحاد والتكامل.

الفصل السادس
بيولوجية الأحلام

كان "صمويل لوي" واحدا من تلاميذ العلامة "شتيكل" المبرزين، إلا أنه اتخذ اتجاهًا خاصًا نحو إدماج الأسس البيولوجية في ميكانزم الأحلام.. وفيما يلي نلخص نظريته في الأحلام ومدلولاتها:

لما كانت الأحلام ظاهرة حيوية مستمرة وعامة بين الناس ومتصلة بالوجود الإنساني، فإنه يجب النظر إليها على أنها "عملية فسيولوجية" من خصائص الحياة الإنسانية؛ وعلى ذلك، فالإحاطة التامة بطبيعة الأحلام، والإلمام بكل دقائقها وقوانينها، وكذلك بأوجه الشذوذ والنقص فيها، تفيد الطب والأطباء، كما تفيدهم الإحاطة بسائر الوظائف البيولوجية سواء بسواء.

وتعتبر صور الحلم التي يعيها الحالم بعد يقظته، النتيجة النهائية للحلم، كما أنها تمثل آخر عملية الحلم وإذن فعملية الحلم شيء متميز عن صوره، ويمكننا أن نقول أن هذه العملية هي إحدى وظائف الجهاز النفسي العصبي حتى إذا لم تعقب صورًا يذكرها

الحالم عقب يقظته، فكثيرًا ما يحس المرء، وهو بين النوم واليقظة، أنه حلم شيئًا في خلال إغفاءته، ولكنه إذ تكتمل يقظته لا يعود يذكر شيئًا من الصور التي تؤيد أنه شاهد حلمًا ما، والأرجح، في تعليل هذه الظاهرة أن الحالم لم ينس حلمه وكل ما هنالك أن شيئًا من الصور المرئية لم يظهر قط في خلال الحلم، على الرغم من أن عملية الحلم جرت في مجراها الطبيعي، وتركت إحساسًا في نفس الحالم بأنه رأى في حلمه صورًا أو أشياء لا يتذكرها!. فإذا اتبعنا هذه الخطوة بخطوة أخرى، قلنا: إن عملية الحلم قد لا تعقب حتى مجرد الإحساس بأنه كان هناك حلم؛ فيصحو الحالم وهو لا يخالجه أدنى إحساس بأنه حلم شيئًا على الإطلاق! ويسعنا، والحالة هذه، أن نسلم بأن عملية الحلم تتكون من ثلاث مجموعات من العناصر:

١. عناصر مستمدة من التجارب الماضية القريبة العهد.

٢. عناصر مستمدة من التجارب الماضية البعيدة العهد.

٣. عناصر لا يسهل ردها إلى واقع التجارب الماضية، قريبة كانت أو بعيدة.

ويلاحظ أن العناصر التي يمكن التعرف عليها تبدو في الأحلام

محرفة أو مشوهة. وكذلك تبدو أحيانًا صور الحياة الواقعة بعد أن يعتريها التبديل والتغيير... لهذا يمكن القول بأن عملية الحلم متصلة بالوظيفة التي مهمتها جمع التجارب الحسية والذهنية. ولما كانت الأحلام مرتبطة بهذه الوظيفة ارتباطًا لا ينفصم بالنوم، فهناك ما يبرر قولنا بوجود علاقة ما بين الأحلام وبين عمليات تمثيل الغذاء وإعادة بناء الخلايا، وهي عمليات تنشط وتتسع دائرة عملها خلال النوم. ولو أننا بحثنا حلمًا من أحلام تحقيق الرغبة مثلاً، أو حلمًا من الأحلام السارة المفرحة، أيًا كان نوعه، لسهل علينا أن نجد فيه من الدلائل ما يؤيد وجود الرابطة بين الحلم وبين عمليتي "التمثيل"، وإعادة بناء الخلايا.

ويقول "فرويد" أن الأحلام تتخذ مادتها الأساسية من النزعات الأولية الرئيسية، أو الطفلية المتفرعة عن الميول الشبقية، أو عن الإحساس بالكراهية أو الغيرة، ذلك الإحساس الموجه إلى الأقربين، وتتعرض هذه النزعات والإحساسات في بداية الأمر للكبت ولكنها تحاول الظهور، فتكون النتيجة أن تظهر لنا مقنعة وراء الرموز المختلفة التي تتراءى لنا في الحلم. كما تتضمن الأحلام أيضًا الرغبات والحوادث والوقائع القريبة العهد. وعملية الحلم في أساسها وسيلة لتحقيق الرغبة.

هذا ما يقوله فرويد ولكن تحقيق الرغبة الذي يقول به لا يبدو ظاهرًا جليًا في مضمون الحلم، لأن هذه الرغبات التي تتطلب الإشباع أو التحقيق تبدو مقنعة، معقدة لا يسهل معرفتها أو حل رموزها، ومن ثم لا يسعنا أن نعرف شيئًا عن الدلالة البيولوجية لهذه الأحلام التي تتخذ مادتها من عهد الطفولة البعيدة، والتي لا يظهر فيها تحقيق الرغبة واضحة جليًا...

فإذا انتقلنا إلى "شتيكل"، وجدناه يتخطى الحدود التي رسمها فرويد لمادة الحلم إذ يقول "إن الأحلام محاولة مستمرة لحل المشكلات القريبة العهد، ومشكلات الحياة الأساسية بوجه عام"... ووفقًا لهذه النظرية يسعنا القول بأن الحلم جزء من العملية البيولوجية التي تتضمن مجموع الحوادث العاطفية. وأن كل ما له معنى، وما يصدر عن الوظيفة الذهنية مرتبط مع ما توحي به العاطفة.. فكل فكرة تطرق ذهن المرء تتكون من عنصر فكري وطاقة عاطفية مختلفة الدرجة. وهذه الطاقة العاطفة هي التي تجعل الفكرة المجردة فكرة "شخصية" مصطبغة بطابع الشخص الذي طرقت ذهنه، وهو الذي يحدث "الإحساس بالفكرة" في نفس المرء والعاطفة مظهر "جسمي"، فهي وجه من أوجه النشاط الذي يظهر أثره على الجسم على شكل سرور، أو غضب، أو خوف ينفعل له الجسم ويحسه إحساسًا بينًا واضحًا.

والنشاط العاطفي يبدي نفسه على وجهين: الأول، ظهور العاطفة التي تنتاب المرء كالسرور، والغضب، والخوف، والحب، والبغض... والثاني، الأثر الوظيفي الذي يحدث للجسم كخفقان القلب، واضطراب التنفس، والغثيان والدوار، وارتجاف الأطراف. وصحيح أن الأثر الوظيفي يختلف قوة وضعفًا، ولكنك لا تجد أبدًا حالة عاطفية لا تحدث أثرًا جسمانيًا مهما تضاءل. ومن الطبيعي والحال كذلك، أن نفترض وجود "ميكانزم" معين ينظم هذا النشاط العاطفي؛ ويعمل على تنظيم التيارات العاطفية المختلفة وما يتبعها ويتفرع عليها من آثار وظيفية. والشيء الذي نسميه عادة "بالحالة العاطفية" هو الذي يمثل في الواقع الحالة التي يبدو فيها الأثر الجسماني الناشئ عن العاطفة واضحًا ملحوظًا. والحقيقة أن هناك تيارًا عاطفيًا مستمرًا في الإنسان، فضلاً عن "رد الفعل" الذي يطرأ على الإنسان ويحدث أثره العاطفي. وإذا أردنا الدقة قلنا أن هذا التيار العاطفي الدائب السريان في الجسم هو الأصل، أو هو القاعدة، وأن رد الفعل العاطفي ما هو إلا تغيرات نوعية أو كمية تطرأ على هذا الأصل، فيكون لها التأثير الملحوظ على أجهزة الجسم. وعلى ذلك يجوز لنا القول بأن المهمة التي يقوم بها الميكانزم العاطفي هي صقل العواطف المختلفة التي يستشعرها المرء، أو بمعنى آخر، إعداد العواطف نوعًا وكمًا بحيث تتلاءم مع طبيعة

الجسم والنفس، وإبعاد هذه العواطف الضارة بصالح الإنسان. فإذا وصلنا إلى هذا الحد من البحث، بدا لنا أن ميكانزم الحلم يدخل في نطاق الميكانزم العام. فمن مميزات النوم الهادئ العميق هدوء ميكانزم الحلم واعتداله. ومعنى ذلك نجاح الميكانزم العاطفي في مهمته وتوفيقه في صقل العواطف. وأما الأحلام التي تفضي إلى اليقظة، فتشير إلى أن ميكانزم الحلم قد أصبح متعبًا مرهقًا، تمامًا كالمعدة المتخمة المرهقة... وكذلك، فإن تزايد الحركة الانقباضية المعدية يحدث تأثيرًا ضارًا بالتوافق العاطفي في حالة اليقظة وفي حالة النوم على السواء. وما دامت صور الحلم التي تلبث مرتسمة في ذهن الحالم، أو التي يمكن أن يذكرها بعد يقظته تتكون في حالة من النوم السطحي، فمن الطبيعي أن كل تيقظ مفاجئ يكون سببه الخلل أو الإرهاق الذي ينتاب الميكانزم العاطفي الذي يؤثر بدوره في الميكانزم العضوي، فيصاحب التيقظ المفاجئ إحساس مزعج يولده في العادة حلم من الأحلام التي تبرز القلق. وهذا القلق يبرهن بدوره على عجز ميكانزم صقل العواطف عن أداء مهمته بنجاح؛ فلا يشترط أن يكون منشأ القلق عقدة نفسية نشطت خلال النوم.

ومن المعروف أن مزعجات النوم تخف وطأتها متى بدئ في العلاج النفسي. ذلك لأن عملية التحليل النفسي لها خاصية

"ديناميكية" تخفف وطأة الإرهاق عن الميكانزم العاطفي فيتمكن من أداء مهمته، ومن ثم يتيسر النوم الهادئ المريح.

ووفقًا للحقيقة المعروفة وهي أن العوامل العضوية – كامتلاء المعدة أو اعتلالها، أو الالتهاب الرئوي الذي يعوق التنفس، أو وجع الأسنان، أو الحمى – تؤثر تأثيرًا أساسيًا على تكوين الحلم، فإنه من الضروري أن تقرن الحوافز والمسببات الجسمانية للأحلام، بالحوافز والمسببات النفسية؛ وعلى ذلك فإن الحاجة ماسة، كما ترى إلى وجهة نظر متحدة خاصة بميكانزم الحلم، تجمع بين النوعين المختلفين من حوافز الحلم تحت عامل مشترك واحد.

ولا مانع من أن نفترض أن العامل النشط الفعال الذي تخرجه عملية الحلم يتكون من مصادر نفسية بحتة، ويشابه تلك الحوافز التي نسميها جسمانية. ومعنى هذا أن تواترًا في الأمعاء مثلاً يثير إلى جانب الإحساس بالألم إحساسًا نفسيًا يحسبه الملاحظ إحساسًا ناشئًا عن مصادر نفسية بحتة، ومن ثم فمن المؤكد أن الوظائف العضوية لجسم الإنسان تستلزم نشاطًا عاطفيًا، يصح أن نطلق عليه اسم "التيارات العاطفية العضوية" التي تتولد نتيجة لعمل أعضاء الجسم.

وهذه التيارات العاطفية تكون ما نسميه بمصادر الحلم الجسماني وهناك ما يؤكد أن كل ما يحسه المرء من عواطف أو نشاط عاطفي مختلف الدرجة في حال يقظته، يتكون في أساسه من موجات حافزة أصلها عضوي بحت؛ وأن كل ما يحس به المرء من سرور، أو خوف، أو غضب، وما يصاحب هذه العواطف من أفكار مطبوعة في العادة بطابع شخصية المرء، مرجعه إلى عمل أجهزة الجسم، وخاصة الجهاز العصبي؛ فلا عجب إذن أن يحدث في خلال النوم "رد الفعل" الذي تحدثه المؤثرات الجسمية فيؤثر على صور الحلم، وعلى عملية الحلم عمومًا.

والواقع أن تحول النشاط العضوي إلى نشاط عاطفي في خلال عملية الحلم، يؤكد لنا العلاقة بين التجاوب العاطفي من ناحية، والاستثارات العضوية والعصبية من ناحية أخرى. ولقد حاول شرنر في نظريته عن الأحلام أن يرجع الأحلام وصورها جميعًا إلى الوظائف العضوية، الطبيعي منها وغير الطبيعي، مفترضًا أن حوادث الأحلام في أساسها رد فعل رمزي للعمليات الفسيولوجية.

ولقد أسلفنا، أن الميكانزم الذي ينظم النشاط العاطفي مهمته صقل وتنظيم النشاط العاطفي نوعًا وكمًا من ناحية، ونشاط الحوافز الجسمانية من ناحية أخرى، وعندما نقول "الحوافز الجسمانية" فإننا

لا نعني الحوافز الناشئة عن الجهاز الهضمي أو الغددي فحسب، بل نعني أيضًا ما ينشأ عن الجهاز العضلي والجلد، ومن ثم يتأثر بها جسم النائم – داخليًا وخارجيًا – تعقب أحلامًا يراها النائم، وما هذه الأحلام في الواقع إلا العلامات الظاهرة للميكانزم الذي ينظم ويصقل الحوافز نوعًا وكمًا، ذلك الميكانزم الذي يعمل في حالة اليقظة كما يعمل في حالة النوم. مما سلف نرى أن عملية الحلم التي تعقب صورًا مرئية في غياب الوعي – أي في حالة النوم – تستمر في عملها حتى في حالة اليقظة... كما أن الوجه العضوي، الذي أسلفنا شرحه، للنشاط العاطفي يستمر كذلك؛ كما تستمر سائر الوظائف البيولوجية، وعلى هذا فإن خلق صور الحلم ليس إلا جزءًا من طبيعة عملية الحلم!.

ولقد ذهب شتيكل في بحثه إلى القول بأن عملية خلق الصور المرئية تستمر حتى في خلال اليقظة، ولكن بطريقة لا شعورية؛ وهو يضرب على ذلك مثلاً بقوله "أن الأشخاص الذين أدمنوا أحلام اليقظة يكادون يرون صور ما ينسجون من أحلام واضحة في مؤخرة عقلهم الواعي".. وهذا الرأي يقوي ما افترضناه من أن ميكانزم تنظيم العواطف وصقلها يستمر في عمله دوامًا، غير أن هذا الميكانزم يقوى ويشتد نسبيًا في خلال النوم. والملاحظات التالية التي

نلاحظها في حياتنا اليومية، نجد لها تفسيرًا معقولاً وفقًا لنظريتنا هذه:

يحدث كثيرًا أن يستيقظ المرء من نومه مرغمًا، أو بسبب انزعاج مفاجئ فيشعر على الفور أنه في حاجة شديدة إلى النوم ولو لبضع دقائق أخرى ليستكمل الإحساس بأنه نام نومًا كافيًا؛ فإذا لم يتيسر له هذا النوم القصير، ظل طيلة يومه مضطربًا، وأما إذا تيسر له، فإن الإحساس بالنوم الكافي يتحقق له! وفي اعتقادي أن مرد هذه الحالة إلى أن عملية الحلم لم تكن قد استنفدت مهمتها بعد، أو أن صورة من الصور التي تخلقها لم تكن قد استكملت أو وجدت سبيلها إلى الظهور، مع ملاحظة أنه لا يجوز لنا إطلاقًا أن نتصور أن منشأ الإحساس بالاضطراب أو الانزعاج عند الاستيقاظ المفاجئ هو عدم نيل قسط وافر من الراحة في النوم، ذلك لأن الدقائق القليلة التي يرغب الإنسان قضاءها في النوم لن تقدم أو تؤخر في إكسابه الراحة! ...

فإذا احتكمنا إلى التجربة والاختبار، وجدنا أناسًا يقبلون على عملهم في الصباح بنشاط مع أنهم نالوا قسطًا قيلاً من النوم، إذا اعتبرنا أنهم أووا إلى فراشهم في وقت متأخر، في حين أن غيرهم، ممن نالوا قسطًا أوفر من النوم ثم أيقظهم شيء مفاجئ، لا يبدون ما

يبديه الأولون من نشاط! وكذلك نجد أن إغفاءة لمدة دقيقة أو دقيقتين، ولو في مكان عملهم، قد ترد لهم نشاطهم وحالتهم الذهنية والجسمية معًا...

وعلى ذلك ينبغي أن نبحث عن المظاهر النفسية في كل حالة أرق تعرض على الطبيب، كما ينبغي المبادرة إلى علاجها علاجًا نفسيًا... ولقد قلنا بأن عملية التحليل النفسي تخفف من حدة الأرق، وتفيد في جلب النوم العميق، ذلك لأن من خصائص عملية التحليل أن تلقي عن عاتق المريض ما يشغله من أفكار وأوهام، وهو ما يسمى بالتفريغ، فيرتفع بذلك الضغط الزائد عن ميكانزم النشاط العاطفي، فيعمل كما ينبغي له أن يعمل.

وينبغي في حالة استطالة عملية التحليل النفسي، أن يعالج السبب العضوي للأرق إن وجد، وكثيرًا ما يوجد مصاحبًا للسبب النفسي.

مشكلة تحليل الأحلام

ويتابع لوي بحثه فيقول: " علينا أن نجد الحلول الصائبة لبعض المشكلات التي تعترضنا في عيادات الطب النفسي، عندما نريد أن نطبق قواعد تحليل الأحلام، فينبغي أن نلاحظ العلاقة الوثيقة التي

تربط العمليات العضوية والنفسية البحتة التي تبدو في الأحلام متحدة لا انفصام لإحداها عن الأخرى، وكذلك ينبغي أن نلاحظ أن عناصر نفسية كثيرة متباينة تترابط بدورها في الأحلام، فتكون صورة واحدة من صور الحلم الواحد فكما أن هناك وعيًا واحدًا وإن كان مركبًا من أفكار عدة متباينة، فكذلك هناك حلم واحد وإن كان معقدًا حاويًا للكثير من العناصر... فالحلم، إذن، ككل تجربة يمر بها الإنسان، وحدة لا تتجزأ... ومن ثم فلابد أن تمثل الصور التاريخية والظواهر الوظيفية، ومشكلات الماضي، وظروف الحاضر، ومشروعات المستقبل في الحلم الواحد، وفي آن واحد!.

ولعل ظاهرة "التكثيف" التي أثبت فرويد وجودها من أبرز صفات الحلم وأهمها. كذلك تبين عملية "توارد الخواطر" المتعلقة بالمضمون الظاهر للحلم لنا أن عوامل الحلم تنتمي إلى طبقات متعددة متباينة تمامًا في مضمونها وأساسها.

وفي رأينا أن صور الحلم لا تطلعنا على "المضمون الباطن" أي موضوع تفكيرنا وإحساسنا الداخل وحسب، بل أنها تطلعنا على الحالة العامة لوظائف النفس ولتعزيز هذا الرأي، أقدم المثل التالي:

"شاب من رجال الأعمال، أحس ذات يوم بالحيرة بين مبدأي

"الحرية" و"المحافظة"، أيهما يفضل وأيهما يختار! ... ولأنه لم ير أهمية مباشرة لمشكلته هذه، فإنه لم يشغل نفسه بحلها... وفي الليلة التالية رأى في نومه كتابين للعلامة "بوانكاريه" "الذي اشتهر بكتاباته في الرياضيات، إلى جانب كتبه التي يدافع فيها عن الدين" كان ينبغي أن يوضعا متقاربين، ولكنهما وضعا متباعدين، تفرق بين الواحد منهما والآخر مسافة.. وكانا الكتابان اللذان رآهما في الحلم يمثلان موضوعين مختلفين؛ أحدهما عن عقيدة مدرسة "الولتا نتشونج" التي تقول بالتزام التفكير الرياضي الرتيب في كل شيء، والثاني عن عقيدة مدرسة المحافظين المتمسكين بالدين".

وفي هذا الحلم نجد أن الفكرة التي دارت بذهن الحالم تتلخص في هذه العبارة: "وكان يجب أن يوضع الكتابان متقاربين"، ولكن هذه الفكرة ظهرت مرموزًا لها في الحلم.

وقد أضاف الحالم، بعد أن سرد حلمه، أن صور الحلم عاودت الظهور مرات متكررة، وأن شعورًا بالضيق صاحبه زمنًا بعد يقظته... ثم قال أن الليلة التي حلم فيها بهذا الحلم كانت ليلة باردة، وأنه كان مشغولاً خلال نومه بلف جسمه بالغطاء الذي كان ينزلق من حين إلى آخر... وأثناء ذلك شاهد الكتابين كأنهما صنعا من الثلج!.

ومن هذا الحلم نتبين الصلة الوثيقة بين الحلم وبين رد الفعل الفسيولوجي من جهة، كما نرى أن عملية الحلم تحمل مغزى بيولوجيًا لا غناء عنه للحياة الطبيعية. أما النظريات التي تنظر للحلم على أنه مجرد نثر محتويات اللاشعور أو "ما دون الشعور" من المكبوتات، فإنها لا تنصف هذه الظاهرة الحيوية من عملية الأحلام. ولا شك أن لميكانزم الأحلام من الأهمية البيولوجية ما لسائر ميكانزمات الجسم كدورة الدم، والإفراز، والإخراج... وسوف نرى ذلك واضحًا جليًا في المثل التالي عن حلم شاب كان يعالج من العنة بالحلم التالي:

"محطة سكة حديدية، النظام فيها مضطرب اضطرابًا شديدًا. بضعة قطارات تستعد للرحيل ولكن أحدًا منها لا يتحرك. وقد بدا لي هناك أن صدامًا ما قد وقع. فعلى أحد الجوانب شاهدت حطامًا، ظهر منه شيء طويل، ظل يستطيل ويستطيل، ثم ظهرت من ورائه ساق سيدة. وكنت أشعر أثناء الحلم باهتياج جنسي شديد".

وليس من العسير أن ندرك أن الشيء الذي أخذ يستطيل إنما هو رمز للاهتياج الجنسي. أما الجسم الأنثوي الذي يرقد تحت الحطام والذي تبدو منه الساق فدليل واضح على نزعة سادية في الحالم... وأما خروج الشيء من تحت الحطام شيئًا فشيئًا فرمز، في

الوقت نفسه، إلى عملية التحليل التي تخرج بالمريض إلى الوضوح والجلاء شيئًا فشيئًا.

وهذان حلمان وقعا في ليلة واحدة لشاب كان يعاني إحساسًا بأن كل شيء غريب عنه، وأنه غريب عن الناس والأشياء:

"رأيت أني جالس مع بعض الناس الذين يرتدون قبعات عالية مدببة، وكان هذا في أسبانيا في عهد "محاكم التفتيش"، وكانت هناك كائدة قبع تحتها شخص لا أدري إن كان ذكرًا أم أنثى، وكان يحاول أن يبعث معي عبثًا جنسيًا؛ وفجأة جاء رجل التفتيش فكان علينا أن نهرب".

وحين سئل الحالم عن الخواطر التي تتوارد على ذهنه بعد أن سرد الحلم قال: "حاول رجل ذات يوم أن يعبث بي عبثًا جنسيًا، ولكن التجربة انتهت بالخيبة وعدم الرضاء من جانبي"...

ثم سرد الحلم الثاني:"رأيت نفسي أخترق شوارع باريس مستقلاً الأوتوبيس، ومرت أربع ساعات لم نر خلالها إلا قضبان الترام الحديدية تمتد إلى ما لا نهاية، وكنت أحس وقتذاك بخيبة الأمل".

كيف نبدأ بتحليل هذين الحلمين اللذين وقعا في ليلة

واحدة؟... وهل هناك فكرة رئيسية قامت بالدور الأول في الحلمين معًا؟ ... دعنا نسرد تتمة ما قاله المريض عن الإحساس الذي كان يعانيه قبل العلاج:

كان المريض قبل العلاج ينتظر ممن يقابلهم، من أفراد جنسه، إشباعًا جنسيًا، ولكنه لم يكن يحصل على مطلبه هذا، ومن ثم شعر بالخيبة، وأحس أنه غريب عن الناس، غريب عن بلده، غريب عن أهله... ولهذا السبب رأى نفسه في حلمه الأول، في بلد غير بلده "أسبانيا" وفي عهد بعيد جدًا "عهد محاكم التفتيش"، وبهذا صور الحلم الإحساس الذي يحسه المريض بالفاصل الذي يفصل بينه وبين العالم!.

وفي الوقت نفسه صور الحلم أعراض المرض الذي يعالج منه، وأشار إلى المقاومة التي يبديها والتي تعوقه عن التقدم في التحليل، بناء على رغبة لا شعورية في أن تظل عقدته غريبة خفية عن الشعور؛ أما في الحلم الثاني، حيث خطوط الترام التي لا تنتهي، والأتوبيس الذي يتجول في شوارع باريس، فنجد أيضًا تعبيرًا واضحًا عن مقاومة التحليل، مؤداها تصميم الحالم على الوصول إلى الغاية من التحليل والاحتفاظ بحالته الراهنة!. أما جلوس الحالم، في حلمه الأول، مع لابسي القبعات المدببة، ومحاولة الشخص المختبئ تحت المائدة،

فرمزان للشذوذ الجنسي وهو سبب ما يعانيه الحالم من متاعب، وجعله يفكر في الارتحال إلى باريس لعله يجد إشباعًا لشذوذه هناك!.

وهذا حلم آخر لمريض كان يعالج من القلق:

"رأيت عاملاً يشتغل بشيء يشبه المنشار. وكان يبدو لي أنه يعمل به من أعلى إلى أسفل، كالطريقة البدائية تستخدم في قطع حزم البرسيم للماشية! ولاح لي كأني أنا الذي أقطع بالمنشار، كما لاح لي أني أنا الشيء المقطوع أيضًا!".

وقد دلت الخواطر التي سردها الحالم عن أن الحلم يصور عملية الاستمناء "العادة السرية" المصحوبة بميول سادية. فالآلة "المنشار"، والحركات المنتظمة والإحساس بأنه هو الذي يَقطع وهو الذي يُقطع، كل ذلك يرمز لعملية الاستمناء وما يصاحبها في ذهنه من خيالات سادية.

الحاسة الفنية وتحليل الأحلام

ويتابع لوي بحثه في مشكلة تحليل الأحلام فيقول: "ومن الآراء المسلم بها في تحليل الأحلام، أن متاعب الحياة الراهنة، تستدعي في الأحلام متاعب الحياة الماضية، وإذا لزم فمتاعب عهد

الطفولة أيضًا!.. وهذه الظاهرة يجب أن تؤخذ على أنها امتداد للحياة النفسية على مر مراحل تطورها. وعلى ذلك، فإن معلومات الإنسان الحاضرة تنعكس عليها تجاربه السابقة. والذي يدور في الأحلام لا يزيد على أنه ترجيع مركز لحوادث الماضي، أو رمز لمحتويات ما دون الوعي.

ولن يتسنى لمحلل أن يضمن صحة النهج الذي يسير عليه في تحليل أحلام مرضاه؛ ذلك أن ميدان تحليل الأحلام ميدان واسع يتطلب التعاون الجدي بين المحلل والمريض، والمعرفة العلمية الغزيرة، والإحساس الفني مجتمعة... إذ لا سبيل للقطع بنتيجة حاسمة. فعندما نحلل حلمًا، إنما نسعى إلى استخلاص النتائج على ضوء العمليات الذهنية المختلفة البعيدة الغور، كما نسعى إلى إيجاد العلاقات بين الحلم وبين التفكير الواعي والعواطف المحسوسة في الحلم. والتحليل الصحيح للحلم يتوقف عادة على عقلية المحلل النفسي، وعلى نوع الحلم المقدم للتحليل ومادته، وعلى الخواطر التي يسردها الحالم نفسه...والطبيب النفسي إنما يعتمد على حاسته الفنية في اختيار عناصر الحلم المهمة من بين العناصر الكثيرة التي تظهر فيه، ولا فرق في ذلك بين طبيب نفسي يدين بنظرية فرويد في تحليل الأحلام، أو يتبع نظرية يونج، أو يحذو حذو شتيكل!.

آثار العهود الأولى والطفلية في الأحلام

وينتهي لوي من بحثه في مشكلات تحليل الأحلام ببحث الآثار الطفلية، والقديمة العهد في الأحلام، فيقول: يذهب بعض علماء النفس "مثل فرويد، ويونج، وهافيلوك أليس" إلى أن الأحلام تبدي آثارًا طفلية، أي ترجع بالحالم إلى عهد الطفولة، كما تبدي آثارًا ترجع إلى العهود الأولى للإنسان... والواقع أن بعض مضمونات الحلم تكشف حقًا عن صلات بين الحلم وهذه العهود البعيدة؛ فمن الملاحظ أن الطفل يتكلم عن نفسه أحيانًا بضمير الغائب، دون أن يميز بين ضمير المتكلم "أنا" وضمير المخاطب "أنت"!.

وإذن فهناك وجه شبه بين "الموضوعية"، و"الذاتية" كما تظهران في الحلم، وفي سلوك الطفل. ولكني أعتقد أننا لا يسعنا أن نقبل مبدأ كهذا مهما نتعمق في البحث. فكون الطفل يتكلم بضمير الغائب كأن يقول "أريد هذا الشيء له" بدلاً من أن يقول "أريد هذا الشيء لي" مثلاً، إنما يدل على أن وعي الطفل لم يتم نضجه بعد، وأن الطفل يحاكي البيئة المحيطة به عندما يتكلمون عنه... فمن العسير أن نقف على مدى "الموضوعية" في حالة طفل يتكلم عن نفسه بضمير الغائب، أو يداعب أصابع قدميه وكأنها شيء منفصل عن جسمه!.

وأعتقد أن العقل الذي ينسج الحلم، هو "العقل البدائي"، يعرف أن عناصر الحلم جميعًا تنتمي إلى كل متحد، ولكنه يجزئ هذا الكل ويوحد هذه الأجزاء بطريقته الخاصة؛ وهكذا الطفل يجزئ الكل ويوحد الأجزاء عند اللهو أو التكلم. ومن الواضح أن خياله يسهل عليه مهمة التجزئ والتوحيد والتجسيد، دون أن يكون لذلك دافع خفي بعيد.

وثمة مشكلة أخرى تواجهنا في هذا الصدد، هي مشكلة الإنسان البدائي – الذي ما زال يعيش في بعض جهات العالم – ذلك الإنسان الذي ليس له أدنى معرفة بالعلوم، والذي يجسد أو يضفي الحياة على مشاعره الخاصة، تمامًا كما يفعل الحلم... وهنا نلاحظ ما يلي:

إذا كان الإنسان البدائي يحلم بطريقة مخالفة للطريقة التي نحلم بها، أو لا يحلم على الإطلاق، ففي هذه الحالة قد نقول بأن في طريقتنا الحالية في الأحلام، بل وفي تصرفات طفولتنا وطريقة تفكيرنا وتعبيرنا عن الأشياء ما يشير إلى تلك العهود البعيدة. أما إذا كان الإنسان منذ خلق يحلم بالطريقة نفسها التي نحلم بها الآن، وأنه رأى من البداية صدى تجاربه النفسية والفسيولوجية على شكل صور مجسدة في الأحلام، فعندئذ نعكس الآية ونقول أن الإنسان

البدائي العاطل من المعرفة والعلم قد استخدم ميكانزم الأحلام أو اللاشعور في حياته اليقظة وفي طريقة تفكيره.

ولما كان الإنسان البدائي يأخذ ما يقع له في حلمه على أنه تجربة حقيقية لا شك فيها، فهو قد نقل ما يتراءى له في أحلامه إلى حياة اليقظة، وإلى طريقة تفكيره وتعبيره عن الأشياء.

عامل الرؤية والميكانزم الفسيولوجي

وعامل الرؤية في الحلم يرجع إلى ميكانزم مندمج في سائر الميكانزمات الفسيولوجية؛ وهو ميكانزم تستلزمه حياتنا الحاضرة. لاستكمال "الصحة النفسية – الفسيولوجية"... لذلك، فقد يسعنا أن نصف الآثار البدائية التي يقول البعض بأنها تساهم في عمل الميكانزم النفسي العضوي عمومًا.. وليس إلا أولئك الذين ينكرون أن الأحلام مستمرة دوامًا ليلاً ونهارًا، ويأخذون الحلم على أنه صور من قبيل الهذيان قد جاءت نتيجة لحافز مزعج؛ ليس إلا أولئك هم الذين يتشككون في المغزى العضوي للحلم، وينكرون الغرض الموضوعي الذي يهدف إليه ميكانزم الآثار البدائية فالحلم تجربة حقيقية. والذي نجربه في الحلم هو الوظيفة النفسية العضوية للذات. ويستوي من حيث المبدأ أن نجرب في الحلم إحساسًا بحادثة عضوية أو "حادثة خارجية" أحدثت تأثيرًا في العقل، أو

"واقعة نفسية بحتة".. فهذه المجموعات الثلاث من التجارب تدخل في نطاق "المجموع العقلي" ففي الكيان الفردي لا يحدث إلا نوع واحد من الأحلام مهما تختلف مصادره!.

والصور المرئية في الحلم ليست إلا آثارًا أو أجزاء لهذا المجموع العقلي الذي تنشط عملياته في خلال النوم. ولنا، على أية حالة، بعض الحق في أن نفصل هذه الصور المرئية عن مجموعة تحوية الحلم، وأن ننظر إليها على أنها المفتاح الأخير لميكانزم الحلم.

وثمة صلة بين التجسيم المرئي والرمز... فالرمز يتبع ميكانزم الآثار البدائية، ويلعب الدور الأساسي في حفز الخواطر عندما يخفت الفكر أو تسيطر العاطفة... وقد رأينا في الشعر، كيف أن الرمز يساعد كثيرًا على تجسيم الفكرة وإبرازها بشكل تمثيلي رائع، وكيف أن هذا الرمز يستدعي كثيرًا من الخواطر المتعلقة بموضوع الفكرة التي يراد إبرازها. والحد من هذه الخواطر يساعد على إظهار مضمون الفكرة مجردًا، ويحدد الفكرة في أضيق نطاق ممكن، وهذا هو مذهب "التفكير الواقعي"... فإذا صح أن الأحلام تصل إلى الآثار البدائية أو المصادر الأولية للحياة، فليس تعليل هذا أن هذه الآثار البدائية هي المصدر أو المنبع، وإنما تعليله: أن هذه المصادر

الأولية بما أنها غزيرة المادة، فهي تساعد على تجسيم مضمون الحلم وإبرازه بشكل رائع مؤثر.

أما العوامل الطفلية في الأحلام، فيمكن وصفها كما يلي:

إذا صرفنا النظر عن الحوافز الطفلية الأساسية للأحلام، التي يقول بها فرويد، يتحتم علينا أن نسلم بأن المضمون الظاهر للحلم يتضمن إشارات إلى عهود ماضية في حياة الإنسان، وأن الخواطر المتواردة تفضي بنا حقًا إلى هذه العهود الماضية. وفضلاً عن هذا فإنه يسعنا أن نأخذ ما نلمسه أحيانًا من فقد السيطرة على الغرائز والعواطف، والتغاضي عن القيود الاجتماعية وعدم التقدير الصحيح للاحتمالات والممكنات، على أنها راجعة ظاهرة إلى مرحلة الطفولة. على أن هذا كله لا يعدو أن يكون إتمامًا لهذه الصفات على عهد الطفولة. فالحلم تجربة ذهنية مجسمة، ويستتبع هذا أن الحدود الناشئة عن الاعتبارات الاجتماعية والخلقية لا يسعها أن تؤثر على حياة الحلم مثل تأثيرها على حياة اليقظة أو التفكير الواعي. وأما فيما يختص بفقدان المنطق وعدم تقدير الحقائق، فينبغي لنا أن نذكر أننا هنا نبحث في أمر الرموز المجسدة في الحلم، وأن العقل دون الواعي – وهو العقل الذي ينسج الحلم – يعلم أن الحلم قائم على العالم الداخلي وليس على العالم الخارجي؛ ومن ثم فإنه لا يحق بنا

أن ندخل في اعتبارنا الحدود والقيود التي تنتمي إلى العالم الخارجي أو الجانب الخارجي من حياتنا...

وفي هذه الحالة من الأفضل أن نتكلم عن أشكال الطفلية بدلاً من الصفات الأساسية لعهد الطفولة. فالحالم يستخدم هذه الأفكار الطفلية للتفكير لأنها أنسب لأغراض الحلم من ناحية؛ ومن ناحية أخرى لأنه ليس ثمة مانع من استخدام هذه الأشكال غير المنطقية!... فاستخدام هذه الأشكال الطفلية الخيالية يساعد عملية إنشاء الحلم وصقله.. وقد وصفنا عملية الحلم بأنها تجربة ذهنية؛ وهذه الأشكال الطفلية تبدو أنها، لكثرة ما ترد في الأحلام، ضرورة نفسية فسيولوجية، أو هي جزء من الحياة لا تنقطع بينهما الأسباب مطلقًا.

تلخيص

نستطيع أن نجمل العناصر الأساسية التي تتضمنها نظرية صمويل لوي في الأحلام، فيما يلي:

* **بما أن الأحلام ظاهرة حيوية مستمرة وعامة بين الناس جميعًا، فإنه يصح أن ننظر إليها على أنها عملية فسيولوجية، من خصائص الحياة الإنسانية.**

* صور الحلم شيء متميز عن عملية الحلم، ويجوز جدًا أن يحدث الحلم دون أن تصاحبه صور؛ فعملية الحلم هي إحدى وظائف "الجهاز العصبي النفسي".

* عملية الحلم مرتبطة بعمليات تمثيل الغذاء في الجسم وإعادة بناء الخلايا، وهي عمليات تنشط وتتسع دائرة عملها خلال النوم.

* هناك تيار انفعالي مستمر في الإنسان، ولكنه يتجلى كلما حدث رد فعل لمؤثر خارجي، وهذا التيار الانفعالي يتلاءم مع طبيعة الجسم والنفس، فهو يختلف من فرد إلى آخر.

* رد الفعل سواء، كان جسميًا أو انفعاليًا يؤثر تأثيرًا كبيرًا على تكوين الحلم.

* عند تحليل الحلم يجب أن نلاحظ أن العلاقة الوثيقة بين العمليات العضوية والنفسية التي تبدو في الأحلام متحدة لا تنفصل إحداها عن الأخرى.

* ظهور الآثار البدائية أو الطفلية في الأحلام ليس دليلاً على أنها مصدر الحلم، وإنما هي وسيلة لتجسيم الحلم وإبرازه، إذ أن هذه المصادر غزيرة المادة.



الفهرس